٦

فى العصر الحديث

كان لاستخدام المطبعة منذ القرن الماضى أثر بعيد فى حياة الشعر العربى ، فإنها فتحت الأبواب على مصاريعها لظهور الصحف التى تتخاطب مع أكبر جمهور من القرّاء فى الأمة ، ومَنْ لم يكن يحسن القراءة كان يستمع إلى من يحسنها ، فكثر عدد مَنْ توجّه إليهم ، بحيث أخذت تتغلغل فى جميع طبقات الشعب حتى الأميين منه ، ولم يلبث الشعراء أن استخدموا الصحف فى نشر أشعارهم وإذاعتها ، فاتسع عدد مَنْ يخاطبونهم ويقرءون لهم ، وأخذ لقاؤهم بهم ينظّم يوميًّا فى الصحف وأسبوعيًّا أو شهريًّا فى المجلات الدورية .

وكان ذلك إيذانًا بتطور خصب فى الشعر العربى الحديث ، إذ أصبح يتصل مباشرة بجميع أفراد الأمة ، ومعروف أن اتصال الشعر بأفراد الشعب قديمًا إنما كان عن طريق المخطوطات ، وكان من الصعب حملها وتداولها ، أما فى العصر الحديث فذلّلت المطابع هذه الصعوبة ، وأخذ الناس يتصلون مباشرة بالشعراء حين ينشرون أشعارهم فى الصحف أو حين يطبعون دواوينهم . فتطبّع الدواوين وذيوعها أتاح — كما أتاحت الصحف — للشاعر أن يشيع شعره وأن يقرأه كل مَنْ يحسن الضاد فى وطنه وفى الأوطان العربية القريبة والبعيدة ، وكلما تقدمنا مع الزمن فى هذا العصر اتسع التعليم وكثر المتعلمون والقارئون ، وأصبحت هناك جماهير غفيرة تقرأ الشعر الذى تنشره الصحف والدواوين المطبوعة بانتظام .

ونشأت فى أواخر القرن الماضى عند محمد عثمان جلال ومَنْ شايعه فكرة أن يُنْظَمَ الشعر بلغة العامة حتى تفهمه الكثرة من الأمة ، ولكن الفكرة المقابلة التى دعا أصحابها أن ينظم باللغة الفصحى هى التى انتصرت ، لأنها لغة القرآن الكريم ، ولأنها اللغة الأدبية المشتركة للأمة العربية على اختلاف أقطارها وتفاوت لغاتها العامية المحلية . وبذلك انسحبت العامية من المجال الأدبى الواسع هى وما نُظم فيها من شعر عامى ، وكادت تنحاز فى مجال ضيق هو مجال المجلات الهزلية وما يتصل بها من نوادر ودعابات .

وكان طبيعيًّا أن يعمل أصحاب الشعر الفصيح على الاقتراب بلغة شعرهم من كافة طبقات الأمة ، فعمدوا بكل ما استطاعوا إلى تيسيرها وتبسيطها ، حتى يفهمها كل من يقع ديوان حديث فى يده ، وكذلك كل مَنْ يقرأ شعراً فى صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية أو شهرية ، بحيث نستطيع أن نقول إنه انبثقت ظاهرة جديدة صحبت الشعر الحديث هى ظاهرة اشتراك الشعب فى تذوق الشعر ، فالشاعر يبسِّط لغته بقدر ما يستطيع ، حتى يقرأه أفراد الشعب ويفهموه بسهولة ، وحتى تتذوق قصائده وأشعاره طبقاتهم الوسطى والدنيا .

وتفاوت حظ الشعراء فى هذا الجانب ، فشوقى مثلا كان يبسِّط أشعاره ، ولكنه كان لا يزال يحتفظ فيها بقيم فنية أكثر من حافظ إبراهيم ، إذ كان حافظ أقرب منه إلى الشعب بسبب نشأته فيه وبين جماهيره ، فكان أكثر منه بساطة وسهولة . ووراء حافظ وشوقى كثيرون دفعتهم رغبتهم فى تبسيط أشعارهم تبسيطاً مفرطاً إلى أن يخلوها من كل جمال شعرى ، ولكن هؤلاء لم يكن توفيقهم كبيراً ، لأن الشعب لم يلبث أن تكوَّن له ذوق أدبى عام جعله يقترب من أمثال حافظ وشوقى بأكثر ممن حاولوا تملقه واسترضاءه متنازلين عن الجمال فى الشعر وكل ما يتصل بقيمه .

وعلى هذا النحو أخذ الشعراء الحديثون يُرْضون شعوبهم العربية بالقرب منها فى لغة أشعارهم ، وفى الوقت نفسه أخذوا يتغنَّون عواطفها فى الحب وغير الحب ، كما أخذوا يتغنون مشاعرها الدينية الروحية والوطنية والقومية . وكأنهم أعادوا لنا سيرة الشاعر الجاهلى القديم حين كان ينكر نفسه فى أشعاره ويتغنى بأحاسيس قومه وأهوائهم الحب وفى الحرب ، فنفسه لا تهمه ، إنما يهمه التعبير عن قبيلته واسترضاؤها ، فهى غرضه ، وهى ملهمته ، يصوّر مشاعرها وعواطفها وأهواءها ، وأشعاره يقدمها إليها قرابين وتراتيل . وهذا نفسه ما حدث عند الكثرة من شعراء العصر الحديث ، فإن أشعارهم إنما تصور الشعوب التى عايشوها وكل ما ألم بها من محن وخطوب .

ومن هنا تتضح فى الشعر الحديث ظاهرة مهمة بجانب الظاهرة اللغوية التى أشرنا إليها آنفًا ، هى أن الشاعر يُفنى شخصيته فى شعبه ، فحياته ومشاعره الذاتية لا تهمه ، إنما تهمه حياة شعبه على نحو ما يتراءى بقوة عند شوقى أكبر شعراء العصر الحديث ، ومن أجل ذلك تعرَّض له بعض النقاد يلومونه ، لأن

شخصيته لا تتضح فى أشعاره . ولم يكن هذا شأن شوقى وحده ، بل كان شأن النابهين من شعراء جيله فى وطنه والأوطان العربية ، إذ تحولوا ممثلين لشعوبها ، يستظهرون مشاعرها فى السياسة وغير السياسة . وأتاح ذلك للشعر العربى الحديث ثراء فنيًّا واسعًا ، وكانت جميع الشعوب العربية تعانى من الاستعمار وآثامه ، فقاومته مقاومة عنيفة ، وقاومه الشعراء مقاومة باسلة .

ولابد أن نلاحظ قبل عرض الطَّوابع الشعبية فى الشعر الحديث أن الغناء ظل عاملا مساعداً على نشره ، كما كان الشأن فى العصور الماضية ، بل لقد اتسع تأثيره فى هذا العصر ، منذ ظهور الإذاعة المسموعة وما تلاها من الإذاعة المرئية ، فصباح مساء يستمع الشباب والناس فى شتّى الأوطان العربية إلى أغانى الشعر الفصيح الوطنية والقومية والوجدانية والدينية الروحية ، وتلتذ الأسماع وتطرب القلوب ، بينما الألسنة تردِّد وتحفظ وتنشد .

ولعل من الخير أن نقف عند شوقى وشعره ، حتى يتضح لنا هذا التطور الواسع الذى أصاب الشعر العربى بنطقه فى العصر الحديث عن شعوبه ، ومدى تعاون الصحف مع الشعراء فى هذا المجال وكذلك تعاون الغناء والمغنين . وكان شوقى منذ أوائل القرن الحاضر لا يترك حادثة سياسية إلا وصوته يجلجل فيها ، وصحيفة الأهرام وغيرها من الصحف تنشر على الشعب أشعاره المتقدة وطنية وحماسة . وكان ما بنى يصوِّب إلى صدور الإنجليز سهامه الشعرية ، من ذلك سهامه النارية التى صوَّبها إلى ذنب من أذنابهم فى سنة ١٩٠٤ هو مصطفى رياض رئيس الوزارة المصرية حينئذ وكان قد خطب خطبة مزرية فى حفل لتأسيس مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية امتدح فيها كرومر المندوب السامى البريطانى الغاشم وامتدح معه الاحتلال الإنجليزى البغيض ، وحنق عليه المصريون حنقًا شديداً ، وتقدمهم شوقى يهتف فى وجهه :

خطبتَ فكنتَ خطبًا لا خطيبًا ... أُضِيفَ إلى مصائبنا الجِسام

لَهِجْتَ بالاحتلالِ وما أتاهُ ... وجُرْحُك منه ـ لو أحْسَسْتَ ـ دامى

وهو هجاء سياسى مرير . ولم تلبث أن وقعت مأساة دنشواى المشهورة ، وجلجل صوت شوقى فى صدر الأهرام وغيرها من الصحف مصوِّراً جُرْم كرومر

البشع . وكان المستعمر الآثم يتخذ سياسة الفرقة بين أبناء مصر ديدناً له ، وكان الدين مما اتخذه لذلك من ذرائع ، محاولا أن يلقى بذور الشقاق بين المسلمين والأقباط . وتنبّه شوقى وغير شوقى من شعرائنا لهذا الرّجْس الخبيث ، فكرّر فى أشعاره الدعوة إلى الوحدة الوطنية ، ناشراً ما ينظم فى الصحف السيارة منشداً مثل قوله :

الدِّينُ للدَّيَّان جَلَّ جَلالُه لو شاء رَبُّك وحَّد الأقواما

وظل الإنجليز يفكرون فى الكيد له لما يخشون من أثر أشعاره وأصدائها فى الشعب المصرى ، حتى إذا كانت سنة ١٩١٤ نفوه عن وطنه إلى إسبانيا لمدة خمس سنوات ، طوال فترة الحرب العالمية الأولى فى القرن الحاضر ، حتى لا يهيج بأشعاره عواطف الشعب المصرى ضد طغيانهم وظلمهم . وهناك أخذ يحنُّ إلى وطنه حنيناً متصلا ، ناظماً قلادته السينية الرائعة ، وفيها يقول بيته المشهور الذى يضمّه كل مصرى إلى حنايا صدره ، مردّداً له فى كل حين :

وطنى لو شُغِلْتُ بالخُلْد عَنْه نازَعَتْنى إليه فى الخُلْد نفْسِى

فلو أنه نزل فى جنة الخلد وفراديسها لظلت نفسه تموج بالحنين إلى وطنه الحبيب ، وكأنه فوق كل ما تصوره البشر من فراديس الجنان . وتنشب ثورة الشعب فى سنة ١٩١٩ وهو لا يزال فى المنفى ، ويتأثر تأثراً بالغاً لدماء الشباب الزكية التى أريقت فى الثورة على نحو ما يتضح فى قصيدته « الحرية الحمراء » . ويعود من منفاه إلى الوطن ، وكله شوق وحنين وحب ، وتنشر له الصحف بائيته هاتفاً فيها بمثل قوله :

ويا وطنى لقيتك بعد يأسٍ كأنى قد لقيتُ بك الشبابا
ولو أنى دُعيتُ لكنتَ دِينى عليه أُقابل الحَتْمَ المجابا
أُدير إليك قبل البَيْت وجهى إذا فُهْتُ الشهادةَ والمتابا

وشوقى — مبالغة فى تصوير حبه لوطنه — يجعله دينه فهو يقدسه ، مديراً إليه وجهه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته ، متوجهاً إليه قبل توجهه به إلى الكعبة المقدسة للقاء ربه . ولا ينسى الشعب الذى يخاطبه بقصيدته ، بل يجعله نصب عينيه ، وكانت الأسعار قد اشتد غلاؤها اشتداداً خطيراً ، فضمن القصيدة شكوى

صارخة، باسم الفقير البائس من أبناء الشعب، تصور جشع التجار وأنهم لا يرعون فيه عهداً ولا ذمة ، ويهيب بأولى الأمر أن يتداركوا الغلاء قبل تفاقمه . ويضطرب شوقى فى كل ما يضطرب فيه الشعب المصرى من أحداث ، فلا يمر حدث سياسى دون أن يسجل إزاءه مشاعر الشعب وعواطفه وأهواءه . وكان الشعب دائمًا فى انتظار أشعاره ، فإذا أعلن الإنجليز فى سنة ١٩٢٢ تصريحهم المشهور باسم تصريح ٢٨ فبراير واتضح فيه تمويههم وما وضعوا فيه من شروط تخنق استقلال مصر وغضب الشعب لذلك صوّر غضبه فى باثيته المعروفة . وسرعان ما يُعدّ هذا الاستقلال المزيَّف مصر لبرلمان منتخب عن الشعب ، وما تلبث الأحزاب أن تتكوّن وتتطاحن على كراسى الحكم ، وكل حزب يسدّد حرابه إلى الحزب الآخر متناسين عدو البلاد المحتل الجاثم فوق صدرها ، وكأنما غرتهم مطامع الحكم وما ينطوى فيها من التولية والعزل وما يُفيئه الحكم عليهم من مغانم بغيضة . وينشر شوقى قصيدة ميمية يكون لها فى الشعب دويٌّ بعيد، ويتغنى الأستاذ محمد عبد الوهاب بكثير من أبياتها ، وفيها يقول شوقى صارخًا فى الأحزاب :

إلامَ الخُلْفُ بينكمُ إلامَا ؟ وهذى الضَّجَّةُ الكُبْرى عَلاما ؟
وفيمَ يكيدُ بعضكمُ لبعضٍ وتُبْدون العداوةَ والخِصاما

ويسترسل شوقى فى بيان ما صار إليه الحكم من فساد، ضاعت فى غباره الكثيف القضية الكبرى : قضية الاستقلال والحرية ، بينما الشعب لا يزال يرزح ويئنّ تحت أثقال البؤس والضنك ، ولا يزال الاستعمار وأذنابه يمتصّون كل رحيق وكل ضَرْعٍ فى الديار ، غير مبقين لأبنائها ما يسدُّون به رمقهم . ونراه دائماً يحضّ الشباب على جهاد المستعمر الباغى ناصبًا أمام بصره تاريخ أمته ودورها الحضارى العريق ، على نحو ما نرى فى داليته التى تتغنى فيها المرحومة السيدة أم كلثوم بمثل قوله مخاطباً الشباب :

وَجْهُ الكنانة ليس يُغْضِبُ رَبَّكم أن تجعلوه كوجْهِهِ معبودا
إن الذى قسَم البلادَ حباكمُ بلدًا كأوطان النجومِ مَجيدا
قد كان ـ والدنيا لحودٌ كلُّها ـ للعبقرية والفنون مُهُودا

وكأن فرعونيات شوقى الباهرة التى كانت تتبارى الصحف فى نشرها لم يكن يريد بها تسجيل ما لمصر فى تاريخ الحضارة الإنسانية من أمجاد باهرة فحسب ، بل كان أيضًا يريد أن يبث فى الشباب روح أسلافهم الأولين الذين دان لهم العالم القديم ، حتى يستردوا للوطن استقلاله وحريته . وجعله شغفه بوطنه يشغف بزعيمه لعصره سعد زغلول ، حتى إذا لبّى نداء ربه صوّر مغيب شمسه الساطعة فى وطنه والأوطان العربية ، وكيف تلطخت جميع الآفاق بالسواد حزنًا عليه ، إذ كان أمل الشعوب العربية كما كان أمل شعبه الذى طالما جاهد مع شبابه وشيوخه الإنجليزَ الغاشمين ، يقول :

شَيَّعُوا الشَّمْسَ ومالوا بِضُحاها ... وانْحَنى الشَّرقُ عليها فبَكاها
جَلَّلَ الصُّبْحَ سوادًا يومُها ... فكأَنَّ الأَرض لم تَخْلع دُجاها
انظروا تَلْقَوْا عليها شَفَقًا ... من جِراحاتِ الضَّحايا ودِماها

ومضى يصوّر مشاعر الوطن إزاء هذا المصاب الفادح تصويراً كله شجىً وأنين . ومن قبله صَوَّر بكاء الوطن ودموعه وزفراته الحارة على مصطفى كامل ومحمد فريد فهو دائمًا صوت الوطن الناطق بلسانه . ورأى من تتمة هذا الصوت أن يصنع لشباب أمته أناشيد وطنية حماسية كانت تنشرها له الصحف ويردّدها الشباب من مثل نشيده الرائع :

اليوم نسـودُ بِوادينا ... ونُعِيـدُ محاسنَ ماضينا
ويشيدُ العـزَّ بأَيدينا ... وطنٌ نَفْدِيـه ويَفْدينا

وكان من أهم ما يخلب لبّه فى وطنه ويمتلك هواه ومشاعره النيل وما على حِفافَيْه وشاطئيه من جنات وزروع وعُيون ، فنظم فيه نشيده البديع :

النِّيل العَذْبُ هو الكوْثَرْ ... والجنَّةُ شـاطئُه الأَخْضَرْ

وله فيه قصيدته بل يتيمته الفريدة التى تغنّى فيها المرحومة السيدة أم كلثوم ، والتى تدور أبياتها بفضل غنائها لها على ألسنة الشباب المصرى ، وهو يستهلها مخاطبًا النيل بقوله :

من أىِّ عَهْدٍ فى القُرَى تتدفَّقُ وبأىِّ كفٍّ فى المدائن تُغْدِقُ

وفيها يصور شوقى أمجاد مصر التاريخية فى عهد الفراعنة وما شادوا من أهرامات باسقة ، ويرسم موكب عروس النيل فى القديم وعبادة آبيس وحج المصريين إلى آلهتهم ، ويذكر الأنبياء الذين نزلوا بمصر ونزول الإسلام فى الوادى الخصيب ، وبذلك يضع للنيل لوحة كبيرة تجسِّد شخصيته المعنوية والأخرى الحسية .

ويتسع شوقى فى تعبيره عن عواطف شعبه ، إذ لا يقف عند العواطف التاريخية والوطنية ، بل يضم إلى تلك العواطف عواطف الشعب القومية العربية ، وبذلك يجمع إلى مشاعر شعبه مشاعر الشعوب العربية القاصية والدانية ، ولعل شاعراً لم يستطع أن يصوِّر أواصر القُرْبى بين الشعبين المصرى والسودانى ، كما صوَّرها شوقى فى نونيته التى تشدو بها المرحومة السيدة أم كلثوم صادحة بمثل قوله :

فمِصْرُ الرياضُ وسُـــودَانُها عيونُ الريـــاضِ وخُلْجانُها
وما هو مـــاءٌ ولكنَّه وَريدُ الحيـــاة وشِرْيانُها
تتمِّم مصـــرَ ينابيعُهُ كما تمَّم العينَ إنسانُها

وبالمثل نراه يصور عواطف الشعب المصرى إزاء سوريا والسوريين فى نونيته التى يصف فيها جنان دمشق وتاريخها المجيد مستثيراً عزائم الدمشقيين كى يزيحوا الاحتلال الفرنسى عن كاهل وطنهم بتآلفهم واجتماع كلمتهم وضَرْب المستعمر الضربة القاضية ، ويصوِّر ما يجمع البلاد العربية من أواصر اللغة والدين والآلام والجراح والأخوة البارَّة ، منشداً :

ونحن فى الشَّرْق والفُصْحَى بَنُو رَحِمٍ ونحن فى الجُرْح والآلام إخْوانُ

وقد تمثل شوقى فى القصيدة مشاعر السوريين الثائرة أقوى تمثل . وتثور دمشق بالعدو الغاشم ويرميها بالمدافع والقنابل ، وتسيل دماء أبنائها أنهاراً . وتتلفت دمشق الغارقة فى الدماء إلى شاعرها المصرى ، فإذا هو يُلقى فى وجوه الفرنسيين وعلى رءوسهم بقذيفة ضخمة من قذائف شعره . مُشْعلا الحمية فى نفوس الدمشقيين وأهل الشام إلى أقصى حَدٍّ بمثل قوله :

وللأوطانِ فى دمِ كلِّ حُرٍّ يَدٌ سَلفتْ وَدَيْنٌ مُسْتحَقُّ
وللحريَّة الحَمْـــراءِ بابٌ بكل يَدٍ مضـــرَّجةٍ يُدَقُّ

ولن تجد شابًّا سوريًّا ولا شيخاً منذ نظم شوقى هاتين القلادتين الثائرتين إلا وهو يستظهرهما ، وما يكاد مصرى يذكر اسمه لسورى إلا ويُنْشده منهما ، فقد امتزجا بدم كل سورى وروحه . وكان يحس إحساساً عميقاً بأن سوريا ومصر والعراق وعُمان وكل بلاد العرب أسرة واحدة ، أفراحها وأحزانها وأرزاؤها واحدة ، وفى ذلك يقول :

قد قضى اللهُ أن يؤلِّفنا الجُرْ حُ وأن نلتقى على أشْجانِهْ
كلما أنَّ بالعـــراق جَرِيحٌ لمَسَ الشَّرْقُ جَنْبَهُ فى عُمانِهْ

فالبلاد العربية كلها أسرة أو عشيرة واحدة ، كلما اشتكى فرد من أفرادها ، وكلما آلمه جرح وآذاه ، وكلما دهته مصيبة ، تداعت له سائر الأفراد . وكأنما كان شعر شوقى القومى إرهاصًا قويًّا بالوحدة العربية المرتقبة . ولم تقع فى أى بلد عربى كارثة ، ولم ينزل به المستعمرون قارعةً من قوارعهم إلا صرخ بصوته محمِّساً متوعِّداً أو منذراً . وقد بلغ به التأثر غايته حين قتل الطليان الغاشمون بطل طرابلس وزعيمها الثائر عمر المختار سنة ١٩٣١ فرماهم بقصيدة ملتهبة يقول فى مطلعها :

ركزوا رُفاتَك فى الرِّمال لِواءَ يَسْتنهضُ الوادى صباحَ مساءَ
يا وَيْحَهُمْ نَصبوا مَنارًا من دَمٍ يُوحى إلى جِيل الغدِ البغضاءَ
جُرْحٌ يصيحُ على المَدَى وضحيَّةٌ تتلمَّس الحُـــرِّيَّةَ الحمراءَ

ودارت القصيدة على كل لسان لا فى ليبيا وحدها ، بل أيضًا فى البلاد العربية جميعها . وهذا هو معنى ما نقوله من أن الشعر العربى الحديث مثَّل الطوابع الشعبية القومية كما نرى الآن عند شوقى ، وأيضًا فقد مثَّل عنده الطوابع الدينية الروحية الشعبية . ودائمًا تسعفه أداتا الذيوع والانتشار الواسع : أداة الصحافة وأداة الغناء ، فالقصيدة الدينية كان ينشرها على الناس فى الصحف ، ثم يغنِّى فيها المغنون لعصره وبعد عصره ، فتحملها موجات الأثير إلى كل مكان فى البلدان العربية . وكان ما يزال ينتهز كل مناسبة ليجلجل بصوته فيها . وخاصة فى مطالع

السنة الهجرية وفى ذكرى المولد النبوى ، وله فى هذه الذكرى بائية بارعة تتغنى المرحومة السيدة أم كلثوم فيها شادية بمثل قوله :

ولم أرَ غيرَ حُكْمِ الله حُكْمًا ولم أرَ دون بابِ الله بَابا

وهو فيها يصوِّر مشاعر الشعب الغاضبة ضد الأغنياء الأشحَّاء ، ويدعو إلى البرِّ بالأيتام والفقراء وإلى العلم وتعليم البؤساء التعساء ، فرب صغير منهم كان — فيما بعد — مفخرة لقومه ودريئة للدفاع عن حماهم والذود عن حياضهم . ومضى يقول إن الهواء شركة بين الأكواخ والقصور ، والشمس شركة بين الوديان والقفار ، والماء شركة بين الأسود والكلاب ، فحرى أن يكون المال شركة بين الأغنياء والفقراء . وجعلته هذه المشاعر الدينية التى تكتظ بها قلوب شعبه يعارض همزية البوصيرى وميميته اللتين طبَّقتا الخافقين شهرة مدوية ، أما الهمزية فيستهلها بقوله الرائع :

وُلِدَ الهُدَى فالكائناتُ ضِياءُ وفَمُ الزمانِ تبسُّمٌ وثناءُ

وقد أصبحت مَهْوَى أفئدة العرب منذ نظمها شوقى ونشرها فى شعبه والشعوب العربية ، مما جعل المرحومة السيدة أم كلثوم تصدح بطائفة كبيرة من أبياتها ، ويردِّد فيها شوقى دعوته إلى الاشتراكية ، كما فى القصيدة السالفة ، قائلا إن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بها لإنقاذ البؤساء من أمته ، على نحو ما نسمع من المرحومة السيدة أم كلثوم إذ تتغنى بمثل قوله مخاطبًا الرسول :

الإشتراكيُّون أنت إمامُهم لولا دعاوَى القوم والغُلَواءُ
أنصفتَ أهلَ الفقر من أهلِ الغِنَى فالكلُّ فى حقِّ الحياة سواءُ

ويصوِّر كيف رَدَّت اشتراكية الإسلام عن الجائع جوعه ، وعن الظامىء ظمأه ، وعن العارى عُرْيه ، بما جعلت للمحرومين فى أموال الأغنياء من حق معلوم . وشوقى بذلك لا يقترب من الشعب فحسب ، بل يتحوَّل مرآة له ، ينطق عن أهوائه ومشاعره . ولا تقلُّ عن هذه الهمزية النبوية روعة وإبداعًا ميميته ، التى تصدح بكثير من أبياتها السيدة أم كلثوم ، من مثل قوله :

رِيمٌ على القاع بين البان والعَلَمِ أحلَّ سَفْكَ دَمِى فى الأَشْهُرِ الحُرُمِ

رَمَى القضاءُ بِعَيْنَىْ جُؤْذَرٍ أسدًا　　يا ساكنَ القاعِ أدركْ ساكنَ الأَجَمِ
لما رَنَا حَدَّثَتْنِي النَّفْسُ قائلةً　　يا وَيْحَ جَنْبِكَ بالسَّهْمِ المُصيبِ رُمِى
يا لائمى فى هَواهُ والهَوَى قدَرٌ　　لو شفَّكَ الوَجْدُ لم تَعْذُلْ ولم تلُمِ

وهى إحدى آيات شوقى . وفى كثير من جوانب شعره يتردّد هذا اللحن الدينى عاكسًا فيه أصداءه فى نفوس الجماعة الإسلامية العربية .

ولم يقطّر شوقى عواطف شعبه والشعوب العربية تلقاء الدين والنزعات الوطنية والقومية فحسب ، بل قطّرها أيضًا تلقاء عاطفة الحب الإنسانى الذى يستأثر بكل ما فى الإنسان من شعور وهوى . وله فيه قصائد بديعة يغنّى فيها الأستاذ محمد عبد الوهاب ، وتتناقلها — كما هو معروف — موجات الأثير عن طريق الإذاعات ، إلى البلاد العربية ، من ذلك قصيدته :

مُضْناك جَفَــاه مَرْقَدُهُ　　وبَكاه ، ورحَّم ، عُــوَّدُهُ

وشوقى يصوّر فيها حيرة المحب وعذابه وآلامه وسهاده وشوقه وحنينه وإهماله للوشاة والعُذّال ولوعته وإصفاءه المودة لصاحبته. ومن بديع غزلياته أغنية « رَحْلة » التى يتغنى فيها الأستاذ محمد عبد الوهاب بمثل قوله :

يا جارةَ الوادى طربتُ وعادَنى　　ما يشبه الأحلامَ من ذكراكِ
لم أدْرِ ما طيبُ العِناقِ على الهَوَى　　حتى ترفّق ساعدى فطواكِ
وتأوّدَتْ أعطافُ بانِكِ فى يدى　　واحمرَّ من خَفَرَيْهما خدَّاكِ
وتعطّلتْ لغةُ الكلام وخاطبَتْ　　عينىَّ فى لغة الهوى عَيْناكِ
لا أمسِ من عُمْرِ الزمانِ ولا غَدٌ　　جُمِعَ الزمانُ فكان يومَ لِقاكِ

وهى رمز لفتاة لبنان ، وللبنان الفاتنة ، وإن تجد لبنانيًّا لا يحفظها ، وكأنما وُكِّل شوقى بأن يذيع قصائد الشعر العربى الحديث على كل لسان فى البلاد العربية بحيث يصبح له فى كل بلد عربى حُفّاظ وأشياع وأنصار ، يترنمون دائمًا باسمه وبشعره . ومن بديع ما تغنى به الأستاذ محمد عبد الوهاب من أشعاره فى

الحب والغزل مقطوعته : « جبل التَّوْباد » التى أودعها شوقى مسرحيته مجنون ليلى مستوحيًا فيها مقطوعة قديمة للمجنون ، يخاطب فيها هذا الجبل المطل على مضارب بنى عامر قوم ليلى ، وفيها يقول شوقى على لسانه :

جَبَلَ التَّوْبادِ ! حَيَّاكَ الحَيَا ... وسَقَى اللهُ صِبَانا ورَعَى
فيك ناغَيْنا الهوَى فى مَهْدِهِ ... ورَضَعْناهُ فكُنْتَ المُرْضِعا
وعلى سَفْحِك عِشْنا زمنًا ... ورَعَيْنا غنمَ الأَهْلِ مَعَا
هَذِهِ الرَّبْوَةُ كانتْ مَلْعَبًا ... لِشَبابَيْنا وكانتْ مَرْتَعَا
كم بَنَيْنا مِنْ حَصَاها أَرْبُعًا ... وانثنَيْنا فمحَوْنا الأَرْبُعَا
وخَطَطْنا فى نَقَا الرَّمْل فلم ... تحفظِ الرِّيحُ ولا الرَّمْلُ وَعَى

ونقا الرمل : قطعه . وشوقى يحيِّى جبَل التَّوْباد ، ويستنزل عليه شآبيب السحاب ، ويذكر على لسان قيس أيام صباه وذكرياتها العبقة حين كان يرعى الغنم مع خالة لُبْنَى : ليلى ، على سفوحه ، وهما تارة يلعبان بالحصى ويبنيان منه بيوتًا ، وتارة أخرى يخطّان فى الرَّمْل خطوطاً محتها الرياح ونسيتها الرمال كأن لم تكن شيئًا مذكوراً . فيالأساه ! ويالشجاه ! ويالَبُرَحاء فؤاده ! . والمقطوعة من مَغْنَاة (أوبريت) مجنون ليلى التى اقتطع فيها الأستاذ محمد عبد الوهاب المشاهد الأولى من مسرحية مجنون ليلى ، وتحوَّل بها إلى مغناة غنائية . ومن يستمع إليها ، بل من يقرأ المسرحية جميعها يحس بوضوح أن شوقى استطاع أن يتمثَّل فى قوة روح الغزل العذرى الذى اشتهر به قيس ومن كانوا حوله من العُذريين أو أصحاب الغزل العذرى ، وأن يصدر عنها صدوراً طبيعيًّا ، كما يصدر الشذى عن الزهر ، على نحو ما نجد فى المقطوعة التالية التى يصدح بها الأستاذ محمد عبد الوهاب :

سَجَا اللَّيْلُ حتى هاج لى الشعرَ والهَوَى ... وما البِيدُ إلا الليلُ والشعرُ والحبُّ
ملأْتُ سماءَ البِيد عِشْقًا وأرضَها ... وحُمِّلْتُ وحدى ذلك العشقَ يارَبُّ
ألمَّ على أبيات ليلى بَىَ الهَوَى ... وما غيرُ أشواقى دليلٌ ولا رَكْبُ
باتتْ خِيامى خطوةً من خِيامها ... فلم يَشْفِنى منها جِوارٌ ولا قُرْبُ

وتلفتنا المغناة ومسرحيتها « مجنون ليلى » المستمدة منها أو المقتطعة إلى مسرحيات شوقى الشعرية جميعها ، فإن شوقى فسح فيها للطوابع الشعبية القومية والوطنية ، على نحو ما فسح لذلك فى شعره الغنائى . أما المسرحيات التى فسح فيها للعواطف القومية ففى مقدمتها مسرحية مجنون ليلى التى أنشدنا منها الأغنيتين السابقتين ، وفيها أعاد إلى الحياة شخصية المجنون فى أروع صورة للحب العذرى الذى تميز به العرب . وعلى شاكلتها مسرحية عنترة بطل العرب الفذ ، وهى تصور بطولته التى طالما شمخ بها العرب ، كما تصور الحب المتبادل بينه وبين ابنة عمه « عبلة » ونراها تلوم قومها على ولاء طائفة منهم للفرس هم المناذرة ، وولاء طائفة اخرى للروم هم الغساسنة ، وأنهم لا يقيمون لهم دولة حرة كدولتيهما ، وتحمل حملة شعواء على عملائهما من العرب ، وتأمل فى تحرير عرب الجاهلية من استرقاق الدولتين ، وتتمنى لو التف العرب حول بطلهم عنترة حتى يخلصهم من الرق وذله . وبجانب هاتين المسرحيتين اللتين طبعهما شوقى بطوابع شعبية قومية نجد له ثلاث مسرحيات طبعها بطوابع شعبية وطنية ، وهى مصرع كليوباترا ، وفيها قدمها ملكة مصرية محبة لوطنها لا تفرط فى حقوقه ، ولا تقصر فى الوفاء لعرشه ، منشدة :

أَموتُ ـ كما حييتُ ـ لعرشِ مِصْرٍ وأَبذل دونه عرشَ الجمالِ

ثم مسرحية تمبيز ، وفيها تضحى الأميرة نتيتاس بحبها من فنى مصرى وتقترن بقمبيز الذميم ، لتدفع عن وطنها غوائل شره ، قائلة :

ومالىَ لا أُعطى الحياةَ إذا دعتْ بلادى ، حياتى للبلاد ومالى

ومسرحية ثالثة هى مسرحية على بك الكبير ، وهى تقص الفصل الأخير من حياته حين استخلص منه مصر تابعه « محمد بك أبو الذهب » ولجأ إلى والى عكا ، وهناك عرض عليه أمير البحر الروسى أن يُعينه على خصمه ، ولكنه رفض عرضه حمية لمصر ولدينه الحنيف ، وصور شوقى رفضه تصويراً وطنياً وإسلامياً رائعاً ، بمثل قوله على لسانه :

ربَّاهُ ! ماذا يقول المسلمون غدًا إن خُنْتُ قومى وأعمامى وأخوالى

يقال فى مَشْرق الدنيا ومَغْربها فعلتُ فِعْلةَ نَذْلٍ وابنِ أَنْذَالِ

لا أستعين على الأهل الغريبَ ولا أرى الذِّئاب على غابى وأشبالِي

وواضح أن شوقى فتح للطوابع الشعبية فى العصر بابًا لم يكن معروفًا من قبل ، هو باب المسرح ونَظْم المسرحيات لا عن طريق طَبْعها ونشرها فى الجماهير فحسب ، بل أيضاً عن طريق اختلاف الجماهير إلى مسرحه ، إذ مُثِّلت مسرحياته فى حياته ولقيت من الجمهور المصرى إقبالا منقطع النظير .

وشعر شوقى بذلك كله يُعَدُّ صورة قوية لما حدث من تطور فى الطوابع الشعبية للشعر العربى الحديث بالقياس إلى تلك الطوابع فى العصور السالفة . وشعره لا يدور على ألسنة المصريين معبراً عن مشاعرهم وحدهم ، بل تتسع آفاقه ، ليدور على ألسنة العرب من الخليج إلى المحيط ، وليعبر عن مشاعرهم فى الحب و الدين وفى المنازع الوطنية والقومية ، وكأنما قبس من روح العرب فى كل مكان أقباساً جعلتهم يُشْغَفون به وبشعره الغنائى والمسرحى شغفاً شديداً .

ومثلٌ مصرىٌّ ثان للطوابع الشعبية وتغلغلها فى الشعر العربى الحديث هو حافظ إبراهيم ، وكان من أبناء الشعب ، وُلد فى أسرة شعبية متواضعة لا تخلو حياتها من الشظف ، وأدَّته الظروف إلى أن يتجرَّع البؤس فى مطالع حياته ، كما أدَّته إلى أن يختلط بأبناء الشعب المصرى المصلحين من أمثال محمد عبده المصلح الدينى وقاسم أمين محرر المرأة . واختلط بأبناء الشعب البؤساء فى الطرقات والمقاهى ، والتقى فى حنايا نفسه البؤس المادى ببُؤْسِ شعبه إزاء الاحتلال الإنجليزى الغاشم ، ولم يلبث أن أصبح صوتًا ضخماً لشعبه ، تنعكس فى نبض قلبه مشاعره الوطنية كما ينعكس حب عميق لوطنه ، حتى ليقول :

كَمْ ذا يُكابِدُ عاشقٌ ويُلاقى فى حبِّ مصرَ كثيرةِ العُشَّاقِ
إنى لأحملُ فى هواكِ صَبابةً يا مصرُ قد خرجتْ عن الأطواقِ

وهى صبابة لا تقف عند مصر الحاضرة ، بل تمتد إلى مصر الغابرة وجلالها وأمجادها التاريخية والحربية وفراعينها العظام ، ويصوِّر صمود مصر للغزاة وتحطُّمهم على صخرها الصَّلْد ، على نحو ما يلقانا فى داليته ، بل قلادته الرائعة التى نظمها على لسان مصر وفيها يمجد التضحية و بذل المهج فى سبيلها ، ويشيد بالعلم والأخلاق ، ويدعو إلى

توحيد الصفوف ونبذ الشقاق ، مؤمّلا فى غد باسم مشرق . وتطير القصيدة على أفواه الشعب كل مطار ، وتتغنى المرحومة السيدة أم كلثوم بكثير من أبياتها ، من مثل قوله على لسان مصر :

وقفَ الخلقُ يَنْظرون جَميعًا كيف أَبْنِى قَواعدَ المَجْد وَحْدِى
وبُناةُ الأَهرام فى سالف الدَّهْـ ـرِ كفَوْنِى الكلامَ عند التَّحَدِّى
أَنا تاجُ العلاءِ فى مَفْرِق الشَّرْـ ـقِ ودُرَّاتُه فرائدُ عِقْدِى

وكان شعره أحدَّ رماحٍ مسمومة صوَّبها الشعراء المصريون إلى صدور الإنجليز الغاشمين منذ أواخر القرن الماضى ، وكان قد بدأ حياته ضابطًا فى الجيش المصرى واشترك سنة ١٩٠٠ فى حركة عنيفة بالجيش ضدهم أحالوه على إثرها إلى الاستيداع ، ولم يلبث أن طلب إحالته إلى المعاش . وظل منذ هذا الحين يصوِّر — فى غضب — بغيهم وطيغانهم واعتصارهم لخيرات الوطن وطيباته وزجِّهم بأبنائه فى غياهب السجون ، ويصيح من أعماقه وأعماق مواطنيه :

إذا نطقتُ فقاعُ السِّجْنِ مُتَّكَأُ وإن سكتُّ فإن النفس لم تَطِبِ
أيشتكى الفقرَ غادينا ورَائِحُنَا ونحن نمشى على أرضٍ من الذَّهَبِ
والقومُ فى مصرَ كالإسْفِنْج قد ظفرتْ بالماء لم يتركوا ضَرْعًا لِمُحْتَلبِ

فضَرْعٌ واحد لبقرة لم يتركه الإنجليز لأصحابه من أهل البلد ، إنما تركوا لهم البؤس والمسغبة ، ومن نَبَسَ منهم ببنت شفة ألقوا به فى غياهب السجون ، إرهابٌ ما بعده إرهاب ، حتى يكمموا الأفواه ، وحتى تختنق الأصوات فى الحلوق ، ولم تلبث طامَّة كبرى أن نزلت : طامَّة دنشواى لسنة ١٩٠٦ بما انطوى فيها من إعدام للأبرياء ومن جَلْد بالسياط ، وتنادَى الشعب المصرى فى كل مكان بالوَيْل والثبور للأعداء الباغين الآثمين ، وصدر عنه مصطفى كامل فى خطب نارية ملتهبة ، كما صدر عنه حافظ إبراهيم بأشعار تحوَّل بأبياتها إلى ما يشبه السياط يكوى بها ظهور الإنجليز الغادرين . وظل يجسِّم بشاعة المأساة ، متقدا حمية لمن ذاقوا الموت والجلد الأليم من مواطنيه صائحاً فى وجه كرومر :

جُلِدُوا ولو منَّيْتَهُمْ لتعلَّقوا بحِبال مَنْ شُنِقُوا ولم يتهيَّبوا
شُنِقُوا ولو مُنِحوا الخِيارَ لأَهَّلوا بِلَظَى سِياطِ الجالدين ورحَّبوا
يتحاسدون على المماتِ وكأْسُهُ بين الشِّفاهِ وطَعْمُهُ لا يَعْذُبُ

وهى صورة رائعة لوطنية الشعب وأبنائه ، فهؤلاء المجلودون من أهل دنشواى كانوا يتمنون لوشُنقوا مع إخوانهم غير هيَّابين ولا جزعين فداء للوطن الغالى بالدماء والأرواح . وما زال حافظ ينطق عن الشعب فى مناضلة كرومر ومنازلته ، وحرابُ مقالات مصطفى كامل وأسنة خطبه تسدَّد إلى كرومر فى مصر وأوربا ، حتى اضطُرَّ إلى الاستقالة مذمومًا مدحوراً ، فى حين يهتف حافظ :

فليت (كُرومَرًا) قد دامَ فينا يطوِّق بالسلاسل كلَّ جِيدِ
ويُتْحِفُ مصرَ آنا بعد آنٍ بمجلودٍ ومقتـــولٍ شَـــهيدِ
لننزعَ هذه الأَكفانَ عنا ونُبْعَثَ فى العوالم من جديدِ

ويتوفَّى مصطفى كامل عقب ذلك سريعًا ، وينوح عليه الشعب المصرى ويئنُّ أنيناً متصلا ، ودموعه لا ترقأ ولا تجفّ ، ويشيِّعه إلى مثواه الأخير باكيًا محزونًا . ويبكى معه حافظ فى مراث بديعة ، كلها لوعات وزفرات حارة ، مصوِّراً حزن الشعب العميق وخروجه زَرافات ووُحْداناً لوداع زعيمه بمثل قوله :

تسعون ألفًا حول نَعْشِك خُشَّعٌ يمشون تحتَ لِوائك السَّيَّارِ
خَطُّوا بأدمعهم على وجه الثَّرَى للحزن أَسْطارًا على أَسْطارِ
آنًا يُوالون الضَّجيجَ كأنهم رَكْبُ الحَجيج بكَعْبةِ الزُّوَّارِ
وتخالهم آنًا لفَرْط خُشوعهم عند المصلَّى يُنْصِتُون لقارِى

وما يزال حافظ يواكب الشعب فى جهاده وثوراته الغاضبة على الإنجليز ، وما يزال ينطق عنه كلما ألمَّ به حادث أو نزلت كارثة ، حتى إذا حكم مصر بأخرة من حياته إسماعيل صدقى حكماً دكتاتوريًّا غاشماً تجرَّد له بأشعار سياسية قصيرة هو وأعوانه الإنجليز الذين أقاموه حربًا على أمته ، ويَهْزَأ بهم ويسخر مما يحشدونه من جنودهم وأساطيلهم بمثل قوله :

حَوِّلوا النيلَ واحْجُبوا الضَّوْءَ عَنَّا ... واطْمِسوا النجمَ واحْرِمونا النَّسيما
واملَئُوا البحرَ إن أردتم سَفِينًا ... واملئوا الجوَّ إن أردتم رُجوما
وأقيموا للعَسْف فى كل شِبْرٍ ... (كُنْستَبْلاً) بالسَّوْط يَفْرِى الأَديما
إننا لن نَحُول عن عهد مصرٍ ... أو تَرَوْنا فى التُّرْبِ عَظْمًا رَميما

وظل طوال حكم صدقى الجائر يسقط عليه بسهام مصمية مصوراً خنقه للحريات وبطشه الشديد ، وكان الشعب ينتظرها فى الصحف كل صباح ليشفى غليله من الباغى الأثيم .

وهذا الشعر السياسى الوطنى الذى كانت تغذّيه عند حافظ عواطف الشعب المصرى ومشاعره كان يرافقه شعر اجتماعى كثير ، يصوِّر فيه علل الشعب الاجتماعية وما تتجرَّعه طبقاته الدنيا صابرة من الفقر والبؤس ، ويجلّى حافظ فى هذا الميدان ، بحيث يصبح صوت الشعب الناطق باسمه فى مطالبه ، فكلما ابتغى حاجة بادر إلى طلبها ، سواء من ذلك ما اتصل بدور العلم أو بإنشاء الملاجىء والجمعيات الخيرية ، وقد هلّل طويلا لإنشاء مدرسة بنات ببورسعيد قائلا :

مَنْ لى بِتَرْبيةِ النساءِ فإنها ... فى الشَّرقِ عِلَّةُ ذلك الإخفاقِ
الأُمُّ مدرسةٌ إذا أَعْدَدْتَها ... أعددتَ شَعْبًا طيِّبَ الأَعْرَاقِ

ولما فتحت الجامعة المصرية أبوابها نوَّه بذلك طويلا . وأهم من هذا الجانب عنده دعوته الحارة إلى الملاجىء والجمعيات الخيرية لِعَوْن الأطفال البؤساء ، وكأن ما ذاقه من طعم البؤس وعاناه من شظف العيش جعله يشعر فى أعماقه بالعطف على البؤساء التعساء من أبناء الأمة ، وله فى ذلك أشعار كثيرة مؤثِّرة يستحثُّ فيها ذوى اليسار على أن يمدوا أيديهم بالمال لعون الأطفال المحرومين رجاء أن يقيموا لهم ملاجىء ، تقدم لهم الغذاء والكساء وشيئًا من المعرفة ، فقد يخرج من بينهم زعيم سياسى كبير مثل سعد زغلول الخطيب المفوَّه ، أو مصلح دينى عظيم مثل محمد عبده ، أو شاعر عبقرى مثل شوقى ، أو قائد محنك يطهِّر البلاد من رِجْس العدو المستعمر وإثمه ، يقول :

أيُّها المُشْرِى ألا تَكْفُلُ مَنْ ... باتَ مَحْرومًا يَتيمًا مُعْسِرَا
أنت ما يُدْرِيك لو أنبتَّه ... ربّما أطْلعتَ بَدْرًا نيِّرَا
ربما أطْلَعْتَ (سَعْدًا) آخَرًا ... يُحْكِم القولَ ويَرْقَى المِنْبَرا
ربما أطلعتَ منه (عَبْدَهُ) ... مَنْ حَمَى الدِّين وزان الأزهرا
ربما أطلعتَ منه شاعرًا ... مِثْلَ (شوقى) نابهًا بين الوَرَى
ربما أطلعتَ منه فارسًا ... يدخل الغِيلَ على أُسْدِ الشَّرَى

الغيل : بيت الأسد . والشرى : مأسدة . وكم فتحت قصائد حافظ من ملاجىء ، وكم جمعت من أموال . وكان الشعب يهلّل استحساناً كلما قرأ له قصيدة اجتماعية أو سياسية ، إذ كان يجد فى أشعاره وقوداً جزلا لجذوة الحياة الكريمة التى يريد أن يحياها ، وقوداً يشعلها فلا تخمد أبداً .

وعلى غرار حافظ وشوقى من تصوير الطوابع الشعبية الاجتماعية والسياسية والدينية فى أمتهم والأمة العربية معاصروهم من شعراء مصر وبلدان العرب ، ولنقف أولا عند العراق وشاعرها الرُّصَافى ، وكان قد دهم بلده الاحتلال الإنجليزى البغيض مع الحرب العالمية الأولى فى هذا القرن وهبَّت العراق فى وجهه واحتدمت المعارك ، وأخذ الرصافى وغيره من الشعراء يثيرون حمية الشعب بمثل قوله :

ياقومُ إنّ العِدَى قد هاجموا الوطنا ... فانْضُوا الصوارمَ واحْمُوا الأهل والسَّكنا
واستنهضوا من بنى الإسلام قاطبةً ... من يسكن البدو والأرياف والمُدنا
واستقتلوا فى سبيل الذَّوْد عن وطن ... به تُقيمون دينَ الله والسُّنَنَا

واستبسل العراقيون فى الدفاع عن وطنهم ، غير أن العتاد الحربى كان ينقصهم ، فاحتل العدوّ الغاصب العراق جميعه منذ سنة ١٩٢٠ وثور العراقيون عليه ثورات عنيفة تُسفك فيها الدماء الطاهرة ، ويراوغ الإنجليز فيحوّلون الحكم من احتلال صريح إلى احتلال مقنَّع ، فيقيمون وزارة من أبناء العراق ، وسرعان ما يتوجون فيصل بن الحسين ملكًا على البلاد ، ملكًا صوريًّا ، يحركونه ويدبرون حكمه كما يشاءون ، ويُنشئون دستوراً وبرلمانًا مزيَّفين ، وزمام الأمور بأيديهم ، وجنودهم

يترددون بأقدامهم الدنسة خلال الديار . وكان ذلك يُقِضّ مضاجع الرصافى وغيره من الشعراء ، كما يقضّ مضاجع الشعب العراق جميعه ، إذ يرون من أبناء الأمة من يَضَعُون أيديهم فى أيدى المحتلّ ومستشاريه ، منفّذين لما سماه تمويها دستوراً وبرلمانًا ، فى حين أن مستشاريه هم الذين يحكمون ناهبين لبلادهم كل طيبات الأرض وثمارها ، والشعب يثور مراراً ، ويثور معه الرصافى بمثل قوله :

عَلَمٌ ودستورٌ ومجلسُ أمّةٍ ... كلٌّ عن المعنى الصحيح محرَّفُ
أسماءُ ليس لنا سوى ألفاظِها ... أما معانيها فليستْ تُعْرَفُ
من يقرأ الدستورَ يعلمْ أنّه ... وِفْقًا لِصَكِّ الإنتداب مصنَّفُ
من ينظر العلمَ المرفرفَ يُلْفِهِ ... فى عِزِّ غير بنى البلاد يرفرفُ
من يأْتِ مَجْلِسَنا يصدِّقْ أنّه ... لمراد غيرِ الناخِبين مؤلَّفُ

فالدستور ليس إلا وثيقة جديدة للانتداب الذى فرضه الإنجليز على العراق ، إنه دستور مزيف وعَلَمُ الدولة مزيَّفٌ هو الآخر ، لأن الإنجليز هم الذين رفعوه تمويها لحكمهم ، وحتى مجلس الأمة نفسه مزيف إذ لا يصدر عن إرادتها ، ومثله مجلس الوزراء إنما يحكم بإرادة الإنجليز ومستشاريهم ، ولا إرادة له ولا قوة . ولا أحد من الشعب يستطيع الكلام ، فقد كمّم المحتل الباغى كل الأفواه ، ومن نبس ببنت شَفة زُجَّ به فى غياهب السجون ، ويصرخ الرصافى ساخراً سخرية شديدة :

يا قـــومُ لا تتكلّموا ... إن الكلامَ محرَّمُ
ناموا ولا تَسْـــتيقظوا ... ما فاز إلا النُّوَّمُ
وتأخَّروا عن كل ما ... يَقْضى بأن تتقدَّموا
ودعوا التفهُّمَ جانبًا ... فالخيرُ أن لا تَفْهموا

وقد دارت هذه المقطوعة على كل لسان فى العراق ، حتى لكأنما أصبحت من أمثال الشعب ، فهو يردّدها فى المظاهرات وكلما كُبِتَت الحريات . وتمادى المحتل الأثيم فى بغيه وطغيانه ، وأى حريات ؟ لقد حُرِم كل فرد من إبداء رأيه ، وأصبح مجرد ذكر كلمة يعبّر بها المواطن عن شعوره أداة لاضطهاده ، ويعلن المواطنون

سخطهم وأنهم لن يستكينوا لهذا الظلم الفادح ، ويعلن ذلك معهم الرُّصَافى ، منشداً:

إذا لم يَعِشْ حُرًّا بموطنه الفتَى فسَمٌّ الفتى مَيْتًا وموطنَه قبْرَا
أَحُرِّيَّتى إنى اتخذتكِ قِبْلةً أوجِّه وجْهِى كلَّ يومٍ لها عَشْرا

وظل العراقيون — طوال الاحتلال الإنجليزى — يولُّون وجوههم نحو قبلة الحرية ، مسترخصين فى سبيلها كل غال ، باذلين لها المهج والأرواح ، فطالما سالت دماؤهم فى مظاهراتهم ومطالبتهم بالحرية والاستقلال ، وكم من مظاهرة تحولت إلى معركة حامية الوطيس ، والإنجليز يراوغون ، فمن معاهدة فى سنة ١٩٢٤ إلى تعديل لبعض موادها فى سنة ١٩٢٧ فمعاهدة جديدة فى سنة ١٩٣٠ ثم معاهدة بورت سموث فى سنة ١٩٤٨ وقد تلقاها الشعب بحنق وغضب شديد ، وسالت نيران المحتل الأثيم فى شوارع بغداد ، وسالت دماء الشباب ، وكثر شهداؤه الذين عرَّضوا صدورهم لرصاص الإنجليز ، فداء للوطن واستبسالا فى الدفاع عن حِماه ، وينوه الجواهرى بهذا الاستبسال والفداء تنويهاً رائعًا فى قصيدته « يوم الشهيد » وفيها يقول :

يومَ الشهيد تحيَّةٌ وسلامُ بك والنضالِ تُؤَرَّخُ الأعوامُ
بك والذى ضَمَّ الثَّرَى من طِيبهمْ تتعطَّر الأَرَضون والأَيَّامُ
وحِياضُ مَوْتٍ تلتقى جَنَباتُها وعلى الحياض من الوفود زِحامُ
حملوا الرصاصَ على الصدور وأوغلوا فعلى الصدور من الدماءِ وِسامُ

والقصيدة تفيض باللوعة والأسى الممضِّ على الشهداء والغضب المضطرم على الأعداء وطغيانهم وحنقهم للحريات والغضب على أذنابهم وأطماعهم الجشعة التى داسوا فيها وطنهم لصَغارهم وهوان نفوسهم هوانًا ما بعده هوان . ووراء الجواهرى والرصافى شعراء عراقيون يفوتون الحصر من أمثال صالح الجعفرى ومحمود الحبوبى ومحمود الملاح ومحمد صالح بحر العلوم والبصير وعبد الرحمن البنا ومحمد على اليعقوبى وغيرهم كثيرون يعبرون فى أشعارهم عن سخط الشعب العراق وغضبه للأغلال التى طوَّقت عنقه ، محاولين بكل ما استطاعوا أن يستنهضوا عزيمة أبنائه ، ليطهِّروا البلاد من رِجْسِ المحتلِّ الباغى ورجْسِ أذنابه الذين يمكِّنون له فى الحكم وفى

البطش والقهر للشعب ، وقد انطبعت فى نفوسهم جميعاً آلام الشعب العراقى لا آلامه السياسية فحسب ، بل آلامه الاجتماعية أيضاً مما يتصل بالحاجة إلى العلم والمزيد منه و بمشاكل المرأة وحقوقها ومشاكل المرض والفقر والبؤس ، وللرصافى شعر اجتماعى كثير ، يصور فيه طموح الشعب العراق إلى المزيد من العلم والتعليم ، كما يصور بؤس الفقراء وما ينزل بهم من كوارث ، داعياً إلى الحنوّ عليهم ، على نحو ما نقرأ له قصيدته « الأرملة المرضعة » البائسة ومما يقوله فيها ، وقد بلغ منه التأثر مبلغاً شديداً :

لَقِيتُها ليتنى ما كنت ألقاها ... تمشى وقد أثقلَ الإملاقُ مَمْشَاهَا
أثوابُها رَثَّةٌ والرِّجْلُ حافيةٌ ... والدَّمْعُ تَذْرِفُه فى الخدِّ عَيْنَاها
ماتَ الذى كان يَحْميها ويُسْعدها ... والدهرُ من بعده بالفقر أشْقاها
ومزَّقَ الدَّهْرُ ـ وَيْلَ الدَّهْرِ ـ مِئْزَرَها ... حتى بدا من شقوق الثوب جَنْبَاها
تمشى وتحمل باليُسْرَى وَلِيدَتَها ... حَمْلاً على الصَّدْرِ مَدْعومًا بِيُمْناها
تقول: يارَبِّ ! لا تَتْرُكْ بلا لَبَنٍ ... هَذِى الرَّضيعةَ وارْحَمْنِى وإيَّاها

والقصيدة مؤثرة ، فالأرملة فيها جائعة ممزقة الثياب ، لا تقوى على تحمل البرد القارس فى الشتاء ، ولا من يد تمتد إليها و إلى أمثالها. وقلب الرصافى يكاد يتمزق من أجلها حسرة ولوعة على أرملة مرضعة لا تجد قوت يومها ولا كساء جسمها ، وطفلتها على يدها ممزقة الثياب ، تبكى بدورها من الجوع والمسغبة ، فالأم لا يدرّ لبنها. وللرصافى قصيدة أخرى فى وصف يتيم أقبل عليه العيد هو وأمه ، وهما باثسان يبكيان ، إذ لا يجدان قوتًا ولا غذاء ولا كساء ، ويصرخ فى قومه : الغوثَ الغوثَ يا أهل النجدة ، وكفانا عذابًا وهوانًا ويظل يصرخ ، حتى يكتئب الناس لليتيم وأمه . ولشعراء العراق بجانب هذا الشعر الاجتماعى والوطنى شعر قومى كثير يتابعون فيه شوقى وشعراء مصر ، إذ كانوا دائمًا يقفون ضد الاستعمار مع كل بلد عربى ينازله ، مشاركين له فى عواطفه ومشاعره . وشعراء العراق — فى هذا الشعر القومى — إنما يحكون الطوابع القومية فى نفوس شعبهم تجاه الاستعمار وآثامه ، وارجعْ إلى ديوان أى شاعر ممن سميناهم آنفًا فستجد الأشعار القومية تحتل شطراً كبيراً منه ، ويكفى أن نمثل بالشاعر محمد على اليعقوبى فإنه يفتتح ديوانه بعشر

قصائد فى فلسطين سوى ماله من أشعار أخرى فى ثورات البلاد العربية من الخليج إلى المحيط . وممن لهم قصائد قومية كثيرة الجواهرى وقصائده شعل حماسية ، يرمى بها فى وجوه المستعمرين ، مستنهضاً الشعوب العربية للقضاء عليهم قضاء مبرماً ، من ذلك ميمية له نظمها بعد نكبة فلسطين الأولى سنة ١٩٤٨ وفيها يقول :

فاضتْ جروحُ فِلَسْطينٍ مذكِّرةً ... جُرْحًا بأندلسٍ للآن ما التاما
سيُلحقون فلسطينًا بأندلسٍ ... ويَعْطفون عليها البَيْتَ والحَرما
ويسلبونك بغداداً وجِلِّقَةً ... ويتركونك لا لَحْمًا ولا وَضَمَا

الوضم : ما يوقى به اللحم من الأرض من خشب ونحوه . والجواهرى يستثير العرب لحمل السلاح دفاعًا عن فلسطين ، ويُنذرهم بأنهم إن تراخوا أضاعوا مكة وكل مقدساتهم وكل بلدانهم وفى مقدمتها بغداد وجلّق أو دمشق . وحين أغار الإنجليز والفرنسيون والإسرائيليون على بور سعيد سنة ١٩٥٦ وقاومتهم وردّتهم مدحورين نظم قصيدته « بورسعيد » مصوراً نذالة المغيرين عليها وخستّهم وصمودها العاتى ، وتعاطف العرب مع مصر وما يحملون لها من آمال ، وما لها فى نفوسهم من إجلال ، قائلا :

كنانةَ الله اسْلَمِى إن المُنَى ... دونكِ لَغْوٌ والحياةَ باطِلُ
كنانةَ الله اسْلَمِى لأُمَّةٍ ... أنتِ لها الغايةُ والوسائلُ
أنتِ لها رَأْدُ الضُّحَى وشمسُهُ ... من بعد ما رانتْ بها الأَصائلُ

رأد الضحى : ارتفاعه . ورانت : غلبت . فمصر الغاية والوسيلة لأمة العرب ، وهى الأمل الحلو الحاضر والمرتقب لها ، وإنها لتبصر فيها شمسها تعود إلى السطوع ، بعد أن طال عليها الميل إلى الغروب . ومنذ نشبت ثورة الجزائر على الفرنسيين تعلقت بها قلوب الشعب العراقى ، كما تعلقت بها قلوب الشعوب فى الأوطان العربية ، ويصدر الجواهرى عن شعبه فى قصيدة عينية مخاطباً الجزائر :

رِدِى عَلْقَمَ الموتِ لا تَجْزعى ... ولا ترهبى جَمْرَةَ المَصْرَعِ
دَعِى شَفراتِ سيوفِ الطُّغاةِ ... تطبَّقُ منك على المَقْطَعِ

فأنشودةُ المجد ما وُقِّعَتْ على غيرِ أوْرِدَةٍ قُطِّع

والقصيدة تكتظ بحماسة ملتهبة ، حتى تصبح الجزائر بركانًا ثائراً لا يزال يقذف الفرنسيين بالحمم ويشوى بها وجوههم وجلودهم حتى ينكشف وباؤهم الذميم عن الوطن إلى غير مآب .

وهذه الطوابع الشعبية المختلفة فى أشعار العراقيين تلقانا بنفس الحرارة فى أشعار السوريين ، وكانوا منذ سنة ١٩٢٠ يقاومون المستعمر الفرنسى مقاومة باسلة ، وقد ظلوا يدافعونه على أبواب دمشق ولم يدخلها إلا بعد أن سالت أنهار من الدماء الطاهرة : دماء السوريين الأبرار يتقدمهم وزير الحربية اللواء يوسف العظمة الذى قاد الجيش السورى فى موقعة ميسلون ، وظل يقاتل مع جنوده حتى خرّ صريعًا مع من خرّ معه فى ساحة الجهاد والشرف الرفيع ، دفاعًا عن الحمى وحفاظًا على الدرين . وكان لقتله واستبساله حتى الأنفاس الأخيرة من حياته أصداء حزن عميقة فى نفوس شعبه ، على نحو ما نرى عند خليل مردم فى داليته وتصويره فيها لدفاعه المستميت مع رفاقه ذوداً عن الوطن وحياضه ، وهو يستهلها بتحية قبره المشرف على ساحة المعركة بميسلون ، يقول :

اعكُفْ على جَدَثٍ فى عُدْوَة الوادِى بِمَيْسَلونَ سقاه الرائحُ الغادِى
وطَأْطِئ الرَّأْسَ إجلالاً لمِرْقَدِ مَنْ قَضَى له اللهُ تخليدًا بأمجادِ
هَوَى وحُلَّتُه حمراءُ مِنْ دَمِهِ كالشمس حين هَوَتْ فى ثوْبها الجادِى
فى فتيةٍ نَفروا للموت حين بَدَا جماعةً من زَرافاتٍ وآحادِ
صَلَّى الإلهُ عليهم من مُجَنْدَلةٍ أشْلاؤُهم بينَ أغْوارٍ وأنْجادِ

الجدث : القبر . والجادى : الأصفر . والقصيدة تزخر بالحسرة والحزن على البطل الذى فدّا وطنه الغالى بروحه هو ومن وقفوا معه من الأبطال يدافعون عن دمشق ، مضحين بأرواحهم ، ضاربين أروع الأمثلة فى التضحية والفداء . وما يلبث بركان الثورة أن يفور فى جبل الدروز لسنة ١٩٢٥ ضد المستعمر الفرنسى وظلمه وعدوانه ، وتثور معه ثورة عنيفة دمشق والمدن السورية ، ويصوّب المستعمر الآثم مدافعه

و رصاصه وقذائفه إلى دمشق والدمشقيين . وتكثر الضحايا ، وتُهدَم البيوت والمساجد ، ويُقتَل الأطفال والنساء . والمستعمر متماد فى غيّه وما يقذف من نيرانه ، والدمشقيون يضربون أروع الأمثلة فى الاستبسال . غير مبالين بالموت الزؤام ، وفى ذلك يقول خليل مردم مصوراً وحشية الفرنسيين وجرمهم الفظيع :

باتتْ دمشقُ على طوفانَ من لهبٍ ... يا داءَ قلبيَ من خَطْبٍ تُكابِدُهُ
موجٌ من النار لا تَهْدَا زَوَاخِرُهُ ... يمدُّهُ آخَرٌ ما ارتدَّ وافِدُهُ
وَبْلُ القذائفِ هَطَّالاً له مَدَدٌ ... والنَّارُ والنَّفْطُ والتهديمُ رَافِدُهُ
ورُبَّ مكنونةٍ كالدرِّ ضُنَّ به ... على العيون فصانتْه نَواضِدُهُ
تخطَّتِ النارَ ليلاً وَهْيَ حامِلةٌ ... طفلا قَضَى برصاص القوم والِدُهُ
فما تناءتْ به حتى أُتِيحَ لَهُ ... شَظِيَّةٌ بانَ منها عنه ساعِدُهُ
ضَمَّتْ إلى صدرها شِلْواً يسيل دَمًا ... كالطير هاض جَناحًا منه صَائِدُهُ

الشلو : العضو ، والبقية من الجسد . وصورة هذه الأم أو قل هذه الزوج المصون التى هتكت النيران حرمتها ، فأخرجتها والهةً تبكى زوجها الذى سُفك دمه تحت بصرها تريد الفرار من هذا الجحيم بطفلها ، فإذا شظية يتبين منها ساعده ، والدم يسيل ولا تستطيع له رَدًّا ، فيا للوحشية ويا للهول . ووراء خليل مردم غير شاعر سورى كان يعبر للسوريين عن مشاعرهم الوطنية ، وبالمثل عن مشاعرهم القومية ، وما كانوا يطمحون إليه من الوحدة العربية واجتماع كلمة الأمة . على شاكلة ما نجد عند خليل مردم فى مثل قوله :

فِيمَ التقاطعُ والأَرْحامُ واشِجَةٌ ... والدَّارُ جامعةٌ والمُلْتَقَى أَمَمُ
اللهَ فى قَطْعِ أرحامٍ وفَصْمِ عُرًى ... عهدى بها وهْيَ وُثْقَى ليس تَنْفَصِمُ
تأْبَى وشائجُ من قربا كمُ اشتبكتْ ... أن يُنْقَضَ العَهْدُ والميثاقُ والذِّمَمُ

واشجة : متشابكة . أمم : قريب . وشائج : صلات . وما زال السوريون وشعراؤهم من أمثال مردم يقاومون المستعمر الفرنسى الباغى حتى استعادوا حريتهم واستقلالهم لسنة ١٩٤٥ .

ومن تتمة هذه المشاعر الشعبية السورية التى صورها الشعراء محبة السوريين لمصر والمصريين . وهى محبة تخفق بها أفئدتهم جميعًا ، محبة تستأثر بعواطفهم وأهوائهم . وخاصة حين ينزل بمصر حادث أو خطب من الخطوب ، كأن يموت زعيم كبير مثل سعد زغلول ، فقد كان شعراؤهم يتبارون حينئذ فى التعبير عن مشاعرهم . وليس ذلك فحسب ، فإننا نجد من بينهم من يصور محبة السوريين لمصر محبة تمتزج بقلوبهم ونفوسهم على شاكلة قول محمد البزم فى فواتح قصيدة طويلة له ، عنوانها : مصر :

حَيِّ العروبةَ والصِّيدَ المَيَامِينا ... فى مصرَ وانْشُدْ فؤادًا ثَمَّ مَرْهونا
وذكِّر القومَ إن عاجَ السلوُّ بهم ... وصِفْ لهم من هَوانا الصِّدْقِ مكنونا
واحمِلْ إلى النِّيل تَحْنانا يردِّدُه ... روضٌ على (بَرَدَى) وَرْداً ونِسْرينا
واقرأْ تحيَّتنا الفُسْطاط إنَّ له ... ذكرى تؤرِّجُ رَيَّاها الرَّياحينا
وقُلْ لحامية الوادى وَفِتْيَتِهِ ... غَرْسِ الفراعين نبتِ العَبْشَمِيِّينا
للطير فى كل غُصْنٍ من خَمائلِنا ... ترجيعُ شوقٍ إلى مصرٍ يُناجينا
لو كان سُلْوانكم نومًا نعيش بهِ ... ما اسْطاع قطّ نُزولاً فى مآقينا
وهْى الكِنانةُ مَهْوَى العُرْب أفئدةً ... كانوا الشآمين أم كانوا اليَمانينا

والقصيدة حب وهيام بمصر ، لعاشق يعبر عن قلوب مواطنيه إزاء مصر التى تملك عليهم قلوبهم حتى الشغاف . وهو يصور حنينهم فى حنين الأرض وترابها ورياضها وفى الأزهار والرياحين . ويقول إن فتية مصر العربية نفس فتية دمشق العبشميين أو الأمويين ، وإن كل شىء هناك يحمل لمصر شوقاً ما وراءه شوق ، حتى ترنيمات الطيور على أغصان الخمائل إنما هى ترجيعات لهذا الشوق الحار . ويصور البزم كيف أن السوريين لا يستطيعون سلوًّا عن المصريين ، حتى لو كان السلو النومَ الذى لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونه لرفضوا أن يلم بأجفانهم ولظلوا مسهَّدين إلى أبد الآبدين . ويوجز فى البيت الأخير تعلُّقَ العرب فى جميع ديارهم وبلدانهم بمصر وتغلغل حبها فى قلوبهم حتى الشغاف .

وحرى بنا أن نقف عند فلسطين وأحداثها الخطيرة ، ومعروف أن اليهود والصهيونيين نشطوا منذ أوائل الحرب العالمية الأولى فى هذا القرن لحمل إنجلترا على أن تعترف بأن فلسطين وطن قومى لليهود . وفى ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧ أعطاهم بلفور وزير خارجية بريطانيا هذا الاعتراف فى كتاب وجهه إلى روتشيلد زعيم الصهيونيين فى إنجلترا ، وهو اعتراف باطل أعطاه من لا يملك إعطاءه تحدياً لشعور أهل فلسطين وإرادتهم . وحدث أن انتُدبت بريطانيا لإدارة فلسطين بعد انتهاء تلك الحرب ، فجعلت تنفيذ وعد بلفور الغاية الأساسية من انتدابها ، إذ عيَّنت على البلاد مندوباً سامياً بريطانيًّا صهيونيًّا ، هو هربرت صموئيل ، ففتح أبواب الهجرة لليهود على مصاريعها ، وجعل العبرية لغة رسمية للدولة بجانب العربية والإنجليزية ، كما جعل اليهود يستقلون بإدارة مدارسهم وبقضائهم . والفلسطينيون يحتجون ويتظاهرون منذ سنة ١٩٢١ وتسيل دماؤهم الزكية فى القدس والخليل ويافا ونابلس ، ويشكل الصهيونيون لهم جماعات إرهابية عسكرية . وتستمر المؤامرة على فلسطين ، وتكثر الثورات فيها ، ويشتد سخط الفلسطينيين ويعنفون باليهود فى سنة ١٩٢٩ ويعودون إلى العنف بهم فى سنة ١٩٣٣ ويثورون ثورة كبرى فى سنة ١٩٣٦ وتظل ثورتهم ثلاث سنوات متوالية ، ويتقدم الإنجليز فى أثنائها بفكرة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود . ويعمُّ الاستياء فلسطين وتتعاظم الثورة وتدمَّر بعض المخافر العسكرية ، ويقتل بعض الحكام الإنجليز ، ويكثر الشهداء فى عكا وغيرها من البلدان ، ويعلن الإنجليز عدولهم عن التقسيم . وتظل الثورة قائمة إلى أن أُعلنت الحرب العالمية الثانية ، فتوقفت بسبب نقص السلاح . وشاعر الشعب فى هذه المرحلة من تاريخ فلسطين هو إبراهيم طوقان الذى ظل ينطق عن ضميرها طوالها ، مصوراً كل ما كان يُؤذى شعبه ويؤلمه أحياناً من الوهن وضعف الروح الوطنية ، على نحو ما نرى فى قصيدة له نظمها لسنة ١٩٢٨ وفيها يصرخ :

وطنٌ يُبَاع ويُشْـــتَرى وتَصِيـــحُ فَلْيَحْيَ الوطنْ
لو كنتَ تَبْغى خـــيرَهُ لبذلتَ من دَمِك الثَّمَنْ

وهى صرخة دَوَّت فى فلسطين ، فلم يدر العام حتى حمل الفلسطينيون السلاح وثاروا ، كما مر بنا ، ثورة عارمة . وفى نفس التاريخ صرخ صرخته

الثانية فى وجوه من يبيعون لليهود أراضيهم غير متنبهين للخطر الجسيم الذى يتيح للوباء اليهودى أن يستفحل شأنه فى البلاد باستيلائه على أراضيها ، وإنه ليصيح :

يا بائعَ الأَرضِ لم تَحْفِلْ بعاقبةٍ ... ولا تعلَّمتَ أنَّ الخصمَ خَدَّاعُ
لقد جنيتَ على الأَحفادِ وا لهَفى ... وهم عبيدٌ وخُدَّامٌ وأَتباعُ
وغرَّك الذهبُ اللمَّاع تُحْرِزُهُ ... إن السَّرابَ كما تَدْريه لمَّاعُ
فكِّرْ بموتك فى أَرضٍ نشأْتَ بها ... واتركْ لقَبْرك أَرضاً طولُها باعُ

وكان لهذه الصيحة كما كان لسابقتها أثر بعيد فى أن يظل الشعب يقاوم بطش المستعمر وأن يظل ينازل اليهود الصهيونيين . ونرى إبراهيم يصبُّ جام غضبه مراراً على الأحزاب وما سبَّبت من عداوات وحزازات داعياً إلى الاعتصام بوحدة الشعب فى وجوه أعدائه ، وأخذ بكل ما استطاع يعبِّئ قوى الشعب ، صائحاً ، صارخاً ، وكأنه بوق ضخم ، فشعره يدوِّى فى جميع الآذان ، ملهباً الحماسة والحمية نفوس الشباب ، حتى كأنما استحالوا أو استحال كثيرون منهم جمراً آدميًّا ، يضحون فى سبيل أمتهم بحياتهم ومهجهم ، باذلين لها دمهم الطاهر الغالى ، ويحييهم طوقان بقصيدته « الفدائى » الرائعة ، وفيها يقول واصفًا لبسالته :

لا تَسَلْ عن سَلامتهْ ... روحُه فوقَ راحتِهْ
يرقبُ الساعةَ التى ... بعدها هَوْلُ ساعتِهْ
هو بالباب واقفٌ ... والرَّدَى منه خائفُ
فاهدئى يا عواصفُ ... خجلا من جَراءتِهْ

وتنشط الصهيونية فى الولايات المتحدة فى أثناء الحرب العالمية الثانية وتستغل تنافس الحزبين الجمهورى والديمقراطى فى الحملة الانتخابية لسنة ١٩٤٤ وتستطيع أن تدفع الرئيس ترومان إلى إذاعة بيان دعا فيه إلى فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية المطلقة . وفى نفس السنة تأسست جامعة الدول العربية واهتم ميثاقها بقضية فلسطين اهتماماً كبيراً ، وقررت مقاطعة اليهود الصهيونيين فى فلسطين اقتصاديًّا ، وأخذت تستثير ضمير الإنجليز والأمريكيين ، ولكن دون جدوى . وفى سنة

١٩٤٧ تخلت إنجلترا عن القضية لهيئة الأمم . وقدمت إليها لجنة دولية تقريراً يقترح تقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ، ويهودية . ورفض الفلسطينيون القرار ، بينما أعلن الصهيونيون قبوله . واحتدمت الحرب بينهما أو قل احتدم النضال الدموى ، وأعانت الفلسطينيين فى نضالهم أفواج من جيش الإنقاذ المدرب فى سوريا ومن متطوعى البلاد العربية ، بينما أخلى الإنجليز المناطق اليهودية حتى يستولى الصهيونيون عليها وظلوا يحتلون المناطق العربية . وارتكب اليهود جريمة بشعة إذ فتكو بأهل قرية دير ياسين وذبحوا منهم مئات . وأخذت تتوالى جناياتهم الوحشية ، وثار الرأى العام العربى ، وطالب حكوماته بالتدخل العسكرى . ودخلت الجيوش العربية فلسطين وتقدمت فى جميع الميادين ، غير أن مجلس الأمن تدخل وأعلن وقف القتال وقيام هدنة ، وانتهز الصهيونيون الفرصة . فعززوا قواتهم الحربية . وعرض مجلس الأمن مشروعاً جديداً لتقسيم البلاد . عارضه العرب ، وعادت جيوشهم إلى القتال فى يوليو سنة ١٩٤٨ ، وحالفهم النصر فى كل الجبهات ، ولم تلبث القوة الأردنية أن انسحبت من « اللُّدّ والرَّمْلة » وتركتهما لليهود ، وانسحبت كذلك القوة العراقية وجيش الإنقاذ فى الشمال ، واحتل اليهود « صفد والناصرية » . وصمدت القوة المصرية فى النقب إلى أن أُعلنت الهدنة فى أوائل سنة ١٩٤٩ . وناضل عرب فلسطين فى المعارك السابقة نضالا مستميتاً ضاربين أروع الأمثلة التضحية ، على نحو ما هو معروف عن عبد القادر الحسينى ، شهيد القسطل الذى طالما أقضّ هو ومن كان معه من الفدائيين مضاجع اليهود وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً . وعلى شاكلته الشاعر البطل عبد الرحيم محمود الذى التحق فى سنة ١٩٤٨ بجيش الإنقاذ . وظل ينازل الصهيونيين متغنياً بأناشيده الحماسية ، حتى خرَّ صريعاً بمعركة الشجرة بجبال الجليل . فداء لوطنه ، ووفاء بعهده فى بعض أشعاره : أن يظل يجاهد العدو الآثم ، حتى يوافيه أجله ، يقول :

أَرى مَقْتلى دون حقِّى السَّلِيبِ ودونَ بلادى هو المُبْتَغَى
يَلَذُّ لأُذْنى سَماعُ الصَّليلِ ويُبْهِجُ نَفْسى مَسِيلُ الدِّمَا
وجِسْمٌ تَجَنْدَلَ فوقَ الهِضَابِ تُناوِشُهُ جارِحاتُ الفَلاَ
فمنه نَصِيبٌ لطَيْرِ السماءِ ومنه نَصِيبٌ لأُسْدِ الشَّرَى

كسادَمُه الأَرضَ بالأُرْجُوانِ وأثقلَ بالعطرِ ريحَ الصَّبَا
وعفَّر منه بَهِيَّ الجَبِينِ ولكنْ عفارًا يزيد البَهَا
لعمرُك هذا مماتُ الرِّجالِ ومَنْ رامَ مَوْتًا شريفًا فذَا

وهو يصور نفسه جنديًّا فدائيًّا يضحى بروحه فى سبيل وطنه السليب راضياً مرضيًّا . بل هانئًا مغتبطًا ، مستشعراً رغبة أكيدة فى الثأر من الأعداء ونضاله لهم مع أقرانه حتى الأنفاس الأخيرة ، وحتى يصبحوا أشلاء فى مناقير الطير وأفواه الوحش ، ودماؤهم الزكية تعطر الأرجاء بشذاها . وقد غمر العَفْر جباههم غمراً يزيدها بهاء ، تلك هى ميتة الرجال الأحرار الذين يبذلون الأرواح والمهج دفاعًا عن الأوطان . وتمت المؤامرة للصهيونيين فاستولوا على الشطر الأكبر من فلسطين مؤسسين دولة إسرائيل ، وتشرَّد مئات الألوف من الفلسطينيين ، تاركين وطنهم إلى الأوطان العربية المجاورة ، دون أى مأوى ودون أى غذاء أو كساء ، والإسرائيليون يتمتعون بخيرات فلسطين وطيبات ثمارها . ويتنهد شعراء فلسطين أسى ، وينتحبون لا دموعاً ، بل أشعاراً حارَّة ، على نحو ما نجد عند هرون هاشم رشيد فى تصوير اللاجئين وما يقاسون فى ليالى الشتاء الباردة والرياح تمزِّق خيامهم ، والبلاء يحيط بهم من كل جانب :

السماءُ اختفتْ فلم يبق إلا سُحُبٌ ترسلُ الوعيدَ ونُذْرُ
وعوتْ تصرخ الرياحُ وهبَّت عاصفاتٌ جموحةٌ لا تَقِرُّ
وإذا الماءُ جامحٌ يغمر الأَر ضَ ويَطْغَى جُموحُه المستمرُّ
فهوَى بالبيوت لم يرحم الزُّغْـ ـبَ ولا ردَّه البكاء المُرُّ
رُبَّ أُمٍّ حَنَتْ على طفْلها البِكْـ ـرِ وضَمَّته وهْىَ خَوْفٌ وذُعْرُ
ألصقتْه بصدرِها خشيةَ المو ت وهل يدفع المنيَّةَ صَدْرُ
وفتاةٍ مكلومةِ القلب تبكى فَقْدَ خِدْرٍ وما حواه الخِدْرُ
وكثيرين قد أفاقوا حَيارَى ما لهم مَلْجَأٌ ولا مُسْتَقَرُّ

الزغب : الأطفال فى المهد . ولم يكن هذا الشعر وما يماثله بكاء وعويلا ،

كما قد يتبادر ، بل كان تعبيراً قويـًا عن مشاعر الفلسطينيين ، وأنهم عائدون . وتصبح كلمة « عائدون » شعاراً لهم فى كل بلد عربى نزلوه . وتدور الأيام دورة قصيرة ، وإذا هم يعودون حقـًا حاملين السلاح ، وكل يوم يُنزلون بالإسرائيليين دماراً يعقبه دمار أشد منه هولا ، فقد استحالوا واستحال معهم كثير من الشباب العربى فدائيين يحصدون الصهيونيين حصداً ، لا نزال نسمع أنباءه منذ الستنيات حتى اليوم ، وفرائِصُ الصهيونيين ترتعد فزعاً ورعباً ، فدائماً يفاجئهم الفدائيون ، ودائمـًا يعصفون بهم عصفـًا . لقد عادوا ، عادوا للثأر لقرية دير ياسين ، وهم ينشدون مع أبى سلمى : عبد الكريم الكرمى :

نعودُ مع العواصف داوياتٍ مع البَرْقِ المقدّس والشّهابِ
مع الرّايات داميةِ الحواشى على وهَج الأسنّةِ والحِرابِ
ونحن الثائرين بكلّ أرضٍ سَنَصْهَرُ باللّظَى نِيرَ الرِّقابِ
أجل ستعود آلافُ الضّحايا ضحايا الظُّلْم تفتحُ كلَّ بابِ

وتلتقى مع نداءات شعراء فلسطين النازحين عن الديار أصوات شباب كثير من الأرض المحتلة ، أحالوا أشعارهم أسنة ورماحا مسمومة ، سدّدوها إلى صدور الصهيونيين على نحو ما هو معروف عن سميح القاسم ومحمود درويش وغيرهما كثيرون . وهم يصورون فى أشعارهم ودواوينهم ثورة عاتية على الصهيونية. ومنذ احتدمت قضية فلسطين فى الأربعينيات وشعراء البلاد العربية يقفون صفـًا واحداً — فى مصر وغير مصر — مع الشعب الفلسطينى ، منادين بمساندته فى الكفاح وحمل السلاح ، وتدور نداءاتهم على جميع الألسنة معبرة عن مشاعر شعوبهم العربية ، ويتغنّى فيها المغنون فى حماسة بالغة ، على نحو ما يتغنّى الأستاذ محمد عبد الوهاب فى قصيدة على محمود طه :

أخى ! جاوز الظالمون المدَى فحَقَّ الجهادُ وحَقّ الفِدَا
وليسوا بغير صَليلِ السيوفِ يجيبون صَوْتًا لنا أو نِدا
فجرِّدْ حُسَامَكَ من غِمْدِهِ فليس له بَعْدُ أنْ يُغْمَدَا

وجرَّدت البلاد العربية المجاورة للأرض المحتلَّة سيوفها ، وحملت أسلحتها ، وفى مقدمتها مصر ، ونازلت الصهيونيين وأبلتْ بلاءً عظيما .

ونولى وجوهنا نحو المغرب وبلدانه وشعرائه ، وهناك نجد مقاومة البلدان المغربية على أشدِّها ضد الاستعمار وشياطينه ، ودائماً يلقانا الشعراء فى طلائع بلدانهم يقاومون ويستبسلون . وأول بلد نقف عنده ليبيا ، وكان الاستعمار الإيطالى قد دهمها منذ أوائل العقد الثانى فى هذا القرن ، وقاومه الشعب الليبى مقاومة عنيفة ، وظل يقاومه منذ دنَّست أقدامه ثرى دياره ، والمستعمر سادر فى بغيه وطغيانه وعدوانه وسفكه للدماء . وكان الشعر من أهم صور هذه المقاومة ، إن لم يكن أهمها ، إذ كان الوقود الذى يعيدها إلى الاشتعال حين تهدأ قليلا ، وكان دائماً يزيد اشتعالها تلظِّيًا واضطراماً . وأهم شاعر نجد عنده هذا الوقود الليبى طوال حقبة الاستعمار الإيطالى هو أحمد رفيق المهدوى الذى أتاحت له الظروف أن يتعلم فى الإسكندرية ، ويرى عن قرب حركة مصر الوطنية ومقاومتها للاحتلال الإنجليزى عقب الحرب العالمية الأولى فى هذا القرن ، ونراه يرثى محمد فريد زعيم الحزب الوطنى حين نزل به الموت لسنة ١٩١٩ منفيًّا عن وطنه شريداً . وكأنما كان ذلك إرهاصاً مبكراً بأن يستشعر الشاعر الشاب محنة بلاده بالاحتلال الإيطالى ، كما استشعر محمد فريد ، ومن قبله مصطفى كامل محنة مصر بالاحتلال البريطانى . وسرعان ما عاد الشاعر إلى وطنه ، وهناك وجد الأفواه مكمَّمة ، ووجد الشعب الليبى ثائراً غاضباً على حِفْنَةٍ تتعاون مع العدو المغتصب ، وخاصَّة على جماعة سَمَّت نفسها باسم الحزب الدستورى العربى ، اتخذها الإيطاليون أداة لتمكينهم من احتلال البلاد ، ويصرخ فى وجوههم :

الحزبُ الدُّسْتورى العربى ينبوعُ الباطل والكذبِ
قد لفَّق أحقرَ شِرْذِمَةٍ ما ينقصهم غيرُ الذَّنَبِ
ما أنتم للطليان سوى بقرٍ للخدمة لا الحلَبِ
وكلابٍ ليس لها أملٌ إلا فى الرَّاتبِ والرُّتَبِ

ولكن أى وجوه؟ لقد سقط من وجوههم ماء الحياء والخجل ، وأصبحوا من أدوات المستعمر البغيضة فى التنكيل بشعبهم واعتصار طيباته وخيراته . وعلى شاكلتهم محرر صحيفة « بريد برقة » الذى كان يدعو فيها جهاراً إلى مصانعة الإيطاليين والتمسك بسياسة الوفاق معهم ، وفيه وفى صحيفته يقول :

ألم يبلغك ما قال البريدُ ... هُرَاءٌ لا يضرُّ ولا يفيدُ
مُسَيْلمةُ الجرائدِ ما تنبَّا ... وزاد فدينه كفرٌ جديدُ
تملَّق كى ينال رضاء قومٍ ... فما رضى الإلٰهُ ولا العبيدُ
وما ربحتْ تجارتهُ فَتِيلاً ... ولا هو فى مساعيهِ حميدُ
يلفِّق كلَّ مكذوبٍ وزُورٍ ... وعما كان من صدقٍ يَحيدُ
إذا خان القريبُ ذَوِيه جَهْرًا ... بربِّك كيف يأْمنه البعيدُ
كفاك فضَحْتَنا فاذهبْ طريدًا ... فيومُ فراقك اليومُ السعيد

ودارت القصيدة على كل لسان ، ودار معها شعره الوطنى ، وغدت حياته محفوفة بالخطر ، فاضطُرَّ إلى مغادرة البلاد والهجرة منها إلى تركيا ، وظل فى مُهاجَره ومنفاه ينظم أشعاراً وطنية تمتلىء بالسخط على عملاء المحتل الأثيم . ويعود بعد تسع سنوات ويستثير حمية شعبه بأشعار ملتهبة ، كى ينهض ، لمنازلة العدوِّ الغاصب ، ويأسى طويلا لمن يسانده من أعوانه وعملائه الذين لا يرعون لشعبهم عهداً ولا ذمةً ، يقول :

إلى متى نحن فى هَمٍّ وأَوْجالِ ... نَحْيا على الضَّيْم فى سِجْنٍ وأَغْلالِ
كيف المقامُ بأَوطانٍ يعذِّبنا ... بها العدوّ ويَرْمينا بزلزالِ
وربما هان خطبُ النازلين بنا ... لو لم يُعَزِّزْهُ خَطْبُ الصَّحْب والآلِ
نصفُ البلاءِ أتى من ظُلْم غاصبنا ... والنصفُ منا بأَحقادٍ وأَذْحالِ

أذحال : أحقاد وثارات . وما زالت ليبيا تقاوم الإيطاليين حتى خرجوا منها إلى غير رجعة فى سنة ١٩٤٣ وتولى الإنجليز حكم البلاد وإدارتها لمدة تسع سنوات تمهيداً لاستقلالها ، وكوَّنوا لأنفسهم بطانة من العملاء آملين فى

وضع عراقيل عن طريقهم ، حتى يؤخروا الاستقلال المنشود . وينزل عليهم رفيق المهدوى بسياط شعره من مثل قوله :

يا أيُّها المتزعمون وما لكم ... حَقٌّ يخوِّلُكم لذاك مقامَا
لستم بأهلٍ أن تسوسوا أُمَّةً ... لم تَرْضَكم لأُمورها قُوَّاما
للشعب فى هذا الزمان إرادةٌ ... تُمْلِى الحقوقَ وتُصْدِرُ الأحكاما
وإذا الضمائرُ أصبحتْ مأجورةً ... فاقرأْ على حُرِّ الضمير سلاما

وانتهى عهد الإدارة الإنجليزية وأُعلن فى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٥١ أن ليبيا أصبحت دولة مستقلة « ذات سيادة » وأقيم لها برلمان ، وكوفئ رفيق المهدوى على وطنيته المخلصة بأن عُيِّن عضواً فى مجلس الشيوخ ، وكان بجانبه مجلس نواب ، ورأى المهدوى أن الأمور لا تجرى على الصورة التى كانت منتظرة ، من حكام مخلصين لا يطلبون المنافع العاجلة ، ونواب وشيوخ يحرصون على المصلحة الوطنية العامة ، فيهتف :

أناختْ على حكم البلاد عصابةٌ ... تسيرُ على أهوائها وتَصُولُ
ولا شأْنَ للدستور فهْو معطَّلٌ ... ولا حكمَ للقانون فهْو فضولُ
ولا عضوَ فى النوَّاب إلا وعَقْلُه ... به من نسيج العَنْكبوت سُدولُ
شيوخٌ ونُوَّابٌ على الشعب عالةٌ ... وعِبْءٌ من الصَّخْر الأَصَمِّ ثَقِيلُ

وكأن ليس هناك حكم . إنما هناك عصابة عطلت الدستور والقانون ولا مُطالب ، فالنواب والشيوخ فى غفلة ، كأنهم خُشُبٌ مسنَّدة . وبذلك كله كان رفيق المهدوى صوتًا قويًّا لشعبه فى فترة الاحتلالين : الإيطالى والإنجليزى ، وفى فترة الاستقلال وقد تحول فيها غاضبًا على فساد الحكم ومهيئًا لثورة الفاتح ، فكل ما جال فى صدره واختلج فى قلبه من مشاعر وطنية وإصلاحية صوّره فى أشعاره ، وأحسن تصويره .

وإذا تركنا ليبيا إلى تونس وجدناها وقعت فى مخالب الاستعمار الفرنسى منذ سنة ١٨٨١ وقد ظلت تجمع نفسها لتقاوم المستعمر الباغى ، وكان

أول ما حاولته من ذلك أن كونت جماعات إصلاحية منذ أواخر القرن الماضى كانت تعبِّر عن نفسها فى صحف مختلفة صدرت هناك . واندفع الشعراء فى ظلال هذه الجماعات يتغنون بالشعور القومى والإسلامى ، وآزرهم كثير من الكتاب فى مقدمتهم الشيخ عبد العزيز الثعالبى ، وقد عمل على وصل الحركة السياسية بالحركتين الأدبية والإصلاحية ، مما كان له صداه فى الشعر ودورانه فى قطبين أو اتجاهين هما الكفاح السياسى والإصلاح الاجتماعى . ويقيِّض للكفاح السياسى بعد الحرب العالمية من هذا القرن أبو القاسم الشابى المتوفى سنة **١٩٣٤** عن سبعة وعشرين عاماً ، وهو خير من تجسَّد فى نفسه بين التونسيين لعصره الكفاح السياسى للمستعمر الفرنسى الباغى ، وكان يعيش فى ألم مزدوج ، ألم مرض خطير ، هو مرض القلب ، وألم كان شركة بينه وبين شعبه وهو ما وقع على صدر الشعب من كابوس الاحتلال الفرنسى البغيض، وامتزج الألَمان بنفسه ، بحيث أصبح أضخم صوت لأمته ، يصور بغى المحتل وعدوانه وظلمه بمثل قوله :

ألا أيُّها الظالم المستبدّ حبيب الفناء عدوّ الحَياه
سخرتَ بأنَّات شعبٍ ضعيفٍ وكفُّك مخضوبةٌ من دِماه
وعشتَ تدنِّس سِحْرَ الوجودِ وتبذر شَوْكَ الأَسى فى رُبَاه

وأى ظالم ؟ إنه عدو للحياة وللناس ، صديق للفناء والعدم ، تتخضب بالدماء أنامله . وهو يضحك ويسخر بأنين الشعوب المستضعفة التى غُلبت على أمرها . وإنه ليدنس بأقدامه سحر الكون ، ويبذر شوك الحزن فى كل مكان وما يوم الثأر ببعيد ، فسيسفك دمه وتسيل منه الشعاب . يقول :

ألا أيها الظُّلْم المصعِّر خَدَّهُ رُوَيْدَك إن الدهرَ يَبْنِى ويَهْدِمُ
أَغرَّك أن الشعبَ مُغْضٍ على قَذًى لك الويْلُ من يومٍ به الشرُّ قَشْعَمُ
سيثأر للعزِّ المحطَّم تاجُهُ رجالٌ إذا جاشَ الرَّدَى فهمُ هُمُ
رجالٌ يرون الذلَّ عارًا وسُبَّةً ولا يرهبون الموتَ والموتُ مُقْدِمُ

والشابى — باسم شعبه — يهدد ويتوعد هذا الظالم الباغى الذى يختال طغياناً

وكبراً ، وحرى بالدهر الذى رفعه إلى الذُّرَى أن يهوى به إلى الدرْك الأسفل ، ولا تغرنه الاستكانة الظاهرة على وجوه الشعب ، فهى لحظات التربص للنسور القوية ، وقد دنت الساعة : ساعة الثأر الذى لا يبقى من العدو ولا يذر ، ثأر رجال يرون الذل وصمة عار لا تمحى ، رجال لا يرهبون الموت ، بل يقتحمون عَرينه اقتحاماً . ومن أروع ما للشابى من هذا الشعر الوطنى الملتهب حماسة ووطنية وحمية لشعبه أنشودته التى يستهلها على هذا النمط :

إذا الشعبُ يوماً أراد الحياةَ ... فلا بُدَّ أن يستجيبَ القَدَرْ
ولا بدَّ لليل أنْ يَنْجَلِي ... ولا بُدَّ لِلْقَيْدِ أن ينكسِرْ
ومن لم يعانقه شوقُ الحياة ... تبخَّر فى جَوِّها واندثَرْ
كذلك قالتْ لىَ الكائناتُ ... وحدَّثنى روحُها المستترْ
ودمدمتِ الريحُ بين الفِجاج ... وفوق الجبال وتحت الشجرْ :
إذا ما طمِحتُ إلى غايةٍ ... لبستُ المُنَى وخلعتُ الحذرْ
ولم أتخوَّف وُعُورَ الشِّعابِ ... ولا كَبَّة اللهبِ المستعرْ
ومَنْ لا يحبُّ صعودَ الجبال ... يَعِشْ أبدَ الدهر بين الحُفَرْ

والأنشودة يصيح بها الشباب العربى فى جميع أقطاره وبلدانه رمزاً لنضال العرب فى كل دار ضد الاستعمار وآثامه وكأنها لم تَنْفصل من قلب الشعب التونسى وفؤاده وحده ، بل فصلت من قلوب جميع العرب وأفئدتهم فى كل بلد من بلدانهم من المحيط إلى الخليج . والشابى لا يبارى فى مثل هذه الأنشودة ، التى يستثير بها أمته كى تنتفض لكرامتها وتهوى بالفرنسيين من حالق ، وترمى بهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . وما يزال يزأر بالفرنسيين زئير الأسد ، وكأنما يريد لشعبه أن ينهشهم نهشاً ولا يبقى منهم باقية . ويحس أحياناً كأن الشعب لا يستجيب لزئيره وصراخه ، فلا ييأس ، بل يظل يلمع أمام بصره الأمل القوى كالشهاب المضىء خلال الظلام الذى كان يغمر دياره ، فالشعب لابد ثائر ، ولابد محطم قيوده ، ومقتحم على العدو حصونه ، بإرادته الجبارة . وحقاً تأخر استقلال تونس حتى سنة ١٩٥٦ ولكن لا شك فى أن أشعار الشابى كانت تمائم للشعب

التونسى وتعاويذ ظل يحملها على صدره ، وظلت تبعث فيه الحمية لنضال المحتل الباغى ، حتى استشاط غضباً ، وحتى أجبره راغما على مبارحة دياره .

ومعروف أن فرنسا أعلنت حمايتها على المملكة المغربية سنة ١٩١٢ إذ اضطرت رئيس دولتها إلى توقيع عقد هذه الحماية وفرضها بالقوة ، وكان لأسبانيا فى الشمال الغربى للمملكة منطقة نفوذ ضيقة ، من مدنها سبتة وتطوان ، وحدث أن وجهت فى سنة ١٩٢٠ حملة للاستيلاء على الريف الشمالى كله بالقوة ، وتصدّى لها البطل المغربى عبد الكريم الخطابى سنوات متعاقبة ، منزلا بها هزائم ساحقة غير أن فرنسا دخلت فى النزاع وأرسلت بقواتها لنصرة القوات الإسبانية وانتصر عبد الكريم على قوات الدولتين غير مرة . وأخيراً اضطرّ إلى إلقاء السلاح سنة ١٩٢٦ بعد أن أشعل بركان الوطنية فى المغرب إشعالاً لم يخمد بعده أبداً ، فقد ملأ نفوس الشعراء والمغاربة لهبا ، ومن هذا اللهب نشيد لأبى بكر بنانى تطاير شرره فى أنحاء البلاد أثناء هذه الحرب ، يقول فيه :

يا بنى المغرب سِيروا للأَمـامْ   وارفعوا رايةَ غازينا الهمامْ
فخرُنا عبدُ الكريم ابن الكرامْ   واسألوا الله انتصارَ المسلمينْ
يا بنى المغرب هبّوا هبّةً   واضربوا وَجْهَ فرنسا ضربةً
ذكرها يبْقى عليها سُبّةً   واسألوا الله انتصارَ المسلمين

وبنانى يستثير الحمية الدينية فى نفوس شباب المغرب ، كى يناضلوا عن عرّينهم ، ويستميتوا فى نضالهم ، حتى يسحقوا الفرنسيين سحقا ، وإنه لجهاد فى سبيل الله وفى سبيل الوطن ، وواجبهم أن يمزقوا عدوهم شر ممزق ، ويضربوه الضربات القاضية ، حتى لا تقوم له بعدها قائمة . وظل الشعب المغربى يقاوم الفرنسيين والإسبان مقاومة باسلة ، فمن تجمعات فى المساجد والأندية إلى مظاهرات وإضرابات ومنشورات والصحف تمتلىء بالمقالات الحماسية ، وتكثر الأشعار والأناشيد الوطنية محمسة ، ومستثيرة مستنهضة ، من مثل قول علال الفاسى ، مشيداً بالوحدة بين العرب والبربر لمقاومة العدو الأثيم :

صوتٌ ينادى المَغْرِبى   من مازغ ليَعْرُبِ

يَحْدُو شبابَ المغربِ للذَّود عن حَوْضِ الوطنْ
لبَّيْك يا صوتَ الجدودْ إنا لِشَعْبنا جنودْ
كلٌّ يرى حفظَ العهودْ والموت من دون الوطن

ويريد بمازغ البربر . ولعلال أناشيد أخرى كثيرة ، وهو من زعماء الحركة الوطنية فى المغرب ، وعبثا حاول المستعمر الفرنسى إخماد هذه الحركة ، ولم تُجْدِه شيئاً غياهب السجون ، ولا كل ما كان يتخذه من وسائل القمع والإرهاب على نحو ما يصور ذلك محمد الجندى إذ يقول :

عن يمينى وعن شمالى قيودُ وأمامى جِيلٌ معنًّى شَرِيدُ
وكأن الشـــبابَ منا هباءٌ ونفوسُ الأَحرار شىءٌ زهيد

ويتعاظم غضب الشعب ، ويثور على العدو الغاشم ثورات عنيفة ، والشعراء من حوله يحمسونه ويدفعونه دفعا إلى الانتقاض على عدوه ، وفك الأغلال التى طوقه بها واستذله ، ويصرخ المهدى الحجوى :

حرامٌ على الحُرِّ الخضوعُ إلى الرِّقِّ حرامٌ وأرضُ الله واسعةُ الطُّرْقِ
حرامٌ على نَفْسِ الأبىِّ مذلَّةٌ وفى الذلِّ موتٌ للشهامة والخُلْق

وتكثر هذه الأشعار التى تصور عتوَّ المستعمر الغاشم وبغيه وأغلاله وسجونه ، وإرهاق الشعب بما لا يطاق حتى غدا شريداً فى دياره ، يعانى من البؤس والاستعباد . ويدعو غير شاعر إلى ثورة دامية تطيح بالعدو . وما زالوا بالشعب بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية فى هذا القرن أوزارها حتى خاض مع مليكه محمد الخامس حرب التحرير ابتغاء الاستقلال التام ، واتسعت الحرب واتسع النضال ، وأنزلت فرنسا الملك المحبوب عن عرشه ونفته إلى جزيرة مدغشقر . وما زال المغاربة ينزلون بالفرنسيين الخسائر تلو الخسائر فى الأرواح والعتاد . حتى أرغموهم على عودة الملك إلى عرشه مكرماً منصوراً وعلى إعطاء المغرب حريته واستقلاله فى سنة ١٩٥٦ . وبجانب ما قدمنا لشعراء المغرب من شعر وطنى نجدهم ينظمون شعراً اجتماعيًّا كثيراً ، لغرض حماية

الشباب من الانحراف الخلقى والانغماس فى القمار وفى الخمر أم الكبائر ، غير آبهين بدينهم الحنيف ولا بالخلق القويم ، وفى ذلك يقول المدنى الحمراوى :

يا شبابَ البلاد مَهْلاً فإنى ... قد رأيتُ الشباب فى استهتارِ
إنما الحرُّ من يصون عفافا ... ويجافى مخازىَ الفُجَّارِ
وَيْحَ مَنْ غَرَّه الشبابُ فأمسى ... يُتْلف العمرَ بين حانٍ و (بار)
إنما تنهض الشعوبُ وتَسْمو ... بمزايا شُـــبَّانها الأَبْرار

ومع الدعوة إلى الخلق المستقيم دعا غير شاعر إلى الأخذ بيد البؤساء من أفراد الشعب وانتشالهم من براثن العُرْى والجوع والمَسْغبة . ونجد كثيرين يدعون إلى تعلم المرأة ، حتى يتحلى جوهرها بالمعرفة ، وحتى تساير الرجل وتتحرر من قيود الجمود ، وكانت قد ساندت الرجل فى الحركة الوطنية ، وزُجَّ بها فى السجون وأدت نصيبها كاملا من الفداء والتضحية ، فوقف معها كثير من الشعراء يؤيدونها فى مطالبها من التعليم ومن التحرر ورفع غشاوة الجهل ، وفى ذلك يقول عبد الكريم سكيرج على لسانها :

لو يَعْتنى قومى بتربيتى ارتقتْ ... رُتَبِى وأخلاقى يتمُّ كمالُها
أوَ بالجهالة ظنَّ قومى عِفَّتى ... والناسُ أقربُ للخَنا جُهَّالها
إن التى لم تحتفل بتأدُّبٍ ... ولو أنها صِينَتْ تسوء فعالها

ويشيد غير شاعر بمواقف المرأة المغربية الوطنية فى الفداء والتضحية . وبجانب هذا الشعر الاجتماعى وسالفه الوطنى فى المغرب عبَّر الشعراء عن مشاعر مواطنيهم إزاء العالم العربى وأحداثه ، وخاصة قضية فلسطين التى شغلت العرب وشعراءهم فى جميع البلاد العربية لعظم المأساة التى ارتكبها الصهيونيون والمستعمرون الغربيون فى ذلك البلد الشقيق . وقد مضى شعراء المغرب — كشعراء البلدان العربية الأخرى — يتوعدون وينذرون بحرب لا تبقى ولا تذر ، على نحو ما يهتف محمد العربى الآسفى :

أُمةَ العُرْبِ حانَ وقتُ العِراكِ ... فى سبيل الوفَا وصَوْن حِماكِ
نحن جُنْدٌ يَهْوى الفِداء ويَهْوَى ... موتةَ العزِّ فى ظلال رُباكِ

إننا النارُ والدماءُ لقومٍ خَذلوا الحقَّ رغبةً فى رَداكِ

فقد دقت ساعة المعركة ، ولم يبق إلا حمل السلاح ذياداً عن الحمى ، ووفاء للوطن المقدس . وإن كل من بالمغرب بل كل من بديار العرب ليهوى الفداء والتضحية بمهجته وروحه ، فى سبيل الحفاظ على أرضه ، حتى يموت ميتة الأبطال الأعزة الأباة ، وعما قريب سننزل بأعدائنا الدمار والهلاك .

والجزائر أول بلد مغربى عربى احتلته فرنسا ، فقد غزاه الفرنسيون سنة ١٨٣٠ وسلمته إليهم القوة العثمانية الضعيفة هناك ، بينما كان الشعب الجزائرى ، يموج بالحمية لوطنه والحماسة للدفاع عنه ، وسرعان ما تسلم قيادته الأمير البطل عبد القادر الجزائرى وظل بنازل الفرنسيين سبعة عشر عاما منزلا بهم الهزائم تلو الهزائم على الرغم من كثرة قواتهم وعُدَدِهم وأسلحتهم الحربية ، وما زالوا يكثرون من جيوشهم وجنودهم حتى غدت كالجراد المنتشر ، فاضْطُرَّ الأمير المجاهد أن يلقى السلاح ، ولكن بعد أن كبد الفرنسيين خسائر جسيمة فى العتاد والأرواح ، وأثِرتْ عنه أشعار حماسية كان ينظمها فى أثناء هذا الكفاح الباسل من مثل قوله يخاطب زوجته :

إذا ما لقيتُ الخيلَ إنى لأَوَّلٌ وإن جالَ أَصحابى فإنى لهم تالى

وبى تتَّقى يوم الطِّعانِ فوارسى تَخالينهم فى الحرب أمثالَ أشْبال

وعَنِّى سَلى جِنْسَ الفَرَنْسِيس تعلمى بأَنَّ مناياهم بِسَيْفى وعَسَّالى

العسال : الرمح . وهى أول ثورة شعبية للجزائريين ، وقد ظلوا من حينها يقاومون الفرنسيين ، واشتدت مقاومتهم بعد الحرب العالمية الأولى فى هذا القرن ، أو قل عادت إلى الظهور ، فتكونت الجبهة الشعبية ثم جمعية المؤتمر الإسلامى ثم كتلة النواب فكتلة نجم شمال إفريقيا التى استحالت أو تحولت إلى حزب الشعب المعروف بمبادئه الوطنية التقدمية ، وفى الحرب العالمية الثانية تكون حزب البيان الديمقراطى . وكل هذه الأحزاب والجمعيات عملتْ على إشعال جذوة المطالب الوطنية ومطلبها الأكبر وهو الاستقلال ، وسرعان ما نشبت الثورة الجزائرية المسلحة فى سنة ١٩٥٤ وظل الجزائريون ينازلون الجيش الفرنسى ويضيقون عليه الخناق ، حتى انسحب نهائيًّا سنة ١٩٦٢ يجلله الخزى والاندحار والعار ، ...

و رُدَّت القوس إلى باريها ، وأُعلن استقلال الجزائر المنشود ودقت به البشائر فى كل بلد عربى . وشاعر الجزائر الذى عاش كل أحداثها فى هذا القرن غير مدافع محمد العيد ، وقد رصد شعره ووقفه على التيار الوطنى الشعبى منذ الثلاثينيات ، بحيث أصبح أقوى صوت يصور مشاعر الشعب وأهواءه السياسة ، ويمدها بوقود من شعره يضرمها ويزيدها التهابا ، غير مبال بسجون الفرنسيين ، ونراه يصرخ فى وجوههم سنة ١٩٣٢ مصوراً ما ملأوا الجزائر به من سواد وظلام وكآبة :

وأغربُ خطبٍ هالنى خطبُ موطنٍ ... لنا منعته الشمسَ أسرابُ أغْرُبِ
كما حبستْ عنه الرياحَ وعارضتْ ... له دون سَيْل القَطْر من كلِّ مَسْرَبِ
بأجنحةٍ سودٍ كأن خيالَها ... ظلامٌ بليلٍ قاتمِ الوجهِ غَيْهبِ

فغِرْبان الفرنسيين السود ملأت سماء الجزائر بسوادها حتى حجبت عنها نور الشمس ، وقد حبست أجنحتُها الرياحَ والأمطار ، حتى لم يعد للجزائريين أمل فى نور ولا فى خصب وثمار ، وإنه ليأسى لوطنه وفردوسه فقد تحول أطلالاً تنعب فيه غربان الفرنسيين السود نعيب نحس وشؤم . وينعقد فى الجزائر المؤتمر الإسلامى سنة ١٩٣٧ ويهدر محمد العيد بصوته فى عدة قصائد مستنهضا همة شعبه كى يُلقى عن ظهره أعباء الظلم الاستعمارى وأثقاله ، ومن هديره فى دالية له :

بلغنا رُشْدَنا يا كونُ فاشهَدْ ... وأَدْرَكْنا فأَذْعِنْ يا وجودُ
حَنَتْ أعناقَنا الأغلالُ ظُلْمًا ... وحزَّتْ فى سَواعدنا القيودُ
فقُمْ يابنَ البلادِ اليومَ وانهضْ ... بلا مهلٍ فقد طال القعود
وخُضْ يابْن الجزائرِ فى المنايا ... تُظَلِّلُكَ البُنودُ أو اللُّحودُ

وهو يسخر فى البيت الأول من الفرنسيين ، فقد بلغ الجزائريون رشدهم وآن أن يفكوا عنهم قيود المستعمر وأغلاله التى تُرَى حُزوزها فى السواعد والسيقان . والعيد يُذْكِى فى مواطنيه كل ما استطاع من ألم ومرارة ، حتى يخوضوا إلى طرد الفرنسيين من بلدهم بركِ الموت الدموية ، فإما النصر وإما الموت الزؤام . وظل يسدد هذه السهام الشعرية للمستعمر الباغى يريد للشعب أن يأتى عليه ؛ وإنه ليصرخ فى وجهه

مراراً . مصوراً دائماً عدوانه على أبناء الأمة ، وخاصة حين كان يَزُجّ بأحدهم فى السجون أو يرميه اغتيالا بالرصاص ، وقد ظل يصور شعبه كالطود الشامخ وأن الفرنسيين العتاة لن يفتُّوا فيه شيئًا ، منشدا :

نحن الجِبالُ بنو الجبال صدى الجبال بنا حَدَا
مَنْ سامَنا بأَذِيَّةٍ فعلى الجبال قد اعتدَى
ومن استهانَ بنا استها نَ بها فحلَّ بِهِ الرَّدَى

وهو تمثيل رائع لصلابة الشعب الجزائرى وقوة منعته واحتماله لأذى الفرنسيين دون أن يصيبه أى خدش نفسى ، فنفوسه صلبة ، بل هم جبال شاهقة تثبت لأى عاصفة ولأى نار ، لا تهاب . وقد أخذ مع أبناء شعبه بعد الحرب العالمية الثانية يتجه إلى فرنسا مؤملا أن تفى بوعودها من الحرية والاستقلال ، حتى إذا يئس منها كما يئس شعبه ، دعاه إلى الثورة المسلحة بمثل قوله :

سَئِمْنا من الشكوى إلى غير راحمٍ وغيرِ محقٍّ لا يدينُ بقسطاسِ
ولا خَيْر فى عَدِّ المظالم وحدَها إذا لم تَبِنْ عن مُرْهَفاتٍ وأَتْرَاسِ

وأخذ يستثير شعبه ويستنهضه للثورة ، ثورة دموية . تعصف بالمستعمر عصفاً ، مما جعل الفرنسيين حين نشبت الثورة يحددون إقامته ويلزمونه داره فى «بَسْكَرَة» . وما زال يقذف بوقوده الشعرى الملتهب حتى نال الجزائريون ما ابتغوه من الحرية والاستقلال . ولم يكن محمد العيد صوت شعبه فى مطالبه الوطنية فحسب ، بل كان أيضًا صوته فى مطالبه الاجتماعية ، وكان من أشد ما يؤذيه أن يرى فيه فقيراً بائساً ، بينما ينعم الفرنسيون فيه بالثراء والبذخ ، وله أشعار كثيرة يلتاع فيها التياعاً شديداً لبؤساء الشعب وفقرائه ، آملاً فى الطبقة الثرية أن تمد لهم يد العون ، من مثل قوله :

فياويحَ الفقيرِ يموتُ جوعًا وليس له من الأقوام حامى
يطوفُ على المزابل حيث يرجو فُتاتَ الخُبْز أو قِطَع العظامِ
ولولا الجوعُ لم يَنْبُشْ قُمامًا ولم يشتقْ إلى ما فى القُمامِ

وكان من أهم ما انطوت عليه نفوس الجزائريين المشاعر القومية ، وفى مقدمتها

مشاعر العروبة ، ونراه يكرر أن الفصحى لغة الجزائر وأنها منهم بمنزلة الروح من الجسد . ومعروف أن فرنسا حاولت أن تميت الفصحى هناك حتى تقطع الجزائر عن تاريخها وماضيها ، وباءت محاولتهم بالإخفاق الذريع ، لتمسك الجزائريين بقوميتهم العربية ودينهم الحنيف . وقد مضوا يشعرون فى أعماقهم بالوحدة العربية بينهم وبين بلدان العرب من الخليج إلى المحيط ، فهى جميعًا بلدان أمة واحدة ترجع إلى عِرْق واحد وحضارة واحدة وتاريخ واحد ويجمع بينها دين واحد ولغة واحدة ، ويكرر محمد العيد هذه المعانى فى قصائد كثيرة من مثل قوله :

ما نحن إلا إخوةٌ من أسرةٍ كرمتْ أرومَتُها وطاب المَحْتِدُ
المِلَّةُ السَّمحاءُ آصرةٌ لنا فوق الأَواصر والعروبةُ مَوْلِدُ

ويشيد مراراً وتكراراً بأمجاد الأمة العربية فى القديم وحضاراتها العريقة ، ويقف مع كل شعب عربى فى نضاله مع المستعمرين ، على نحو ما يلقانا فى قصيدته « القدس للعرب » وفيها يعلن الصهيونيين أن العرب لا بد آخذون بثأرهم ولا بد أن يطهِّروا القدس من آثامهم . وكانت فرحة الجزائريين باستقلال ليبيا فرحة عظيمة وبلسانهم حيَّاها بلامية بديعة ، وبالمثل حيَّا السودان باستقلاله ، كما حيَّا المغرب باستقلاله وعودة مليكه . وكانت مصر دائماً بأحداثها نُصْب أعين الجزائريين وكان محمد العيد يصدر عن مشاعرهم وخاصة منذ إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وما انبعث فى القنال من مقاومة مسلحة للإنجليز ، حتى إذا قامت ثورتنا المجيدة سنة ١٩٥٢ حَيَّاها بقصيدة رائعة ، يقول فيها :

هذه مصرُ أنكرتْ مادهاها فدعتْ جيشَها فخاضَ الكفاحا
لم يُرِقْ قطرةً مِنَ الدَّم فيها أو يُثِرْ غارةً ويُشْهر سلاحا
طهَّر الجيشُ نيلَ مصر فما أَبْ قَى بهِ غَيْلَمًا ولا تِمْساحا
وإذا الجيشُ قام بالحكم عدلًا ردَّ للشعب حقَّه المسْتَباحا

وهو يحيِّى مصر ويحيى جيشها الباسل الذى طهَّرها من المستعمر البريطانى ورجسه وإثمه . وفى الجزائر كثيرون وراء محمد العيد تمثلوا مشاعر شعبهم القومية ، ونطقوا مثله عن العروبة وشعوبها ومطالبها فى الحرية والاستقلال . وهو إحساس

عام لدى شعراء الشعوب العربية جميعًا فى العصر ، فالشاعر فى أى بلد عربى يعيش ترجماناً لشعبه ومشاعره وعواطفه لا إزاء مطالبه الوطنية فحسب ، بل أيضاً إزاء مطالب الشعوب العربية جميعاً وكل ما اختلج فى أفئدتها من مطامح فى الحياة الحرة المستقلة .

وتتعلق أنظار الجزائر وغير الجزائر من الأوطان العربية بثورتنا . وتهجم إنجلترا وفرنسا وعميلتهما إسرائيل هجومهم الغادر على بورسعيد سنة ١٩٥٦ ، ويناضل أهلها شيباً وشباناً ورجالا ونساء عنها نضالاً بطولياً ، يكيلون فيه اللطمات لقوى الغدر والعدوان ، ويسندهم الجيش بأسلحته ، ويقتنصون أول سرب لجنود المظلات ، ويعصفون بقوى الشر عصفاً ، وتولى فلولهم الأدبار إلى البحر المتوسط وما وراءه مذعورة لا تلوى على شىء . واصطفّ الشعراء فى هذه المعركة العنيفة وراء الشعب وجيشه الباسل ، يلهبونهما حمية وحماسة فى الدفاع عن العرين وتمزيق العدو شر ممزق ، مرسلين عليه شواظاً ملتهباً من أشعارهم ، مثل أنشودة كمال عبد الحليم :

دَعْ سَمائى فسمائى مُحْرِقَه دَعْ قَناتى فمياهى مُغْرقه
واحذرِ الأَرضَ فأَرضى صاعقه
هـــذه أَرضى أنا وأَبى ضحَّى هنـــا
وأَبى قال لنـــا مزِّقـــوا أَعداءنا

وحقًّا لقد احترقوا فى الأتون المصرى ، وتحولت السماء صواعق تذيقهم وبال عدوانهم ، واحمرَّتْ مياه القناة من دمائهم . وذلك تاريخ مصر العظيم دائماً يحرس حدودها أبناؤها الأبطال ، بل دائمًا يحيلونها مقبرة كبيرة للغزاة ، على نحو ما يقول محمود حسن إسماعيل :

أَنا النيلُ مقبرةٌ للغُزَاه أَنا الشعبُ نارى تُبيد الطغاه
أَنا الموتُ فى كلِّ شِبْرٍ إذا عدوُّكِ يا مِصْرُ لاحتْ خُطاه

فكل غاز لمصر منذ فجر الأزل طَحنته وقَبرته وأحرقته بأيدى أبنائها الشجعان البررة الذين تجسدوا فى أبناء بورسعيد . فإذا بنادقهم وأسلحتهم الصغيرة حتى

السكاكين تحصد العدو حصداً ، وإذا فلوله تفرّ مذعورة مبهوتة ، وقد ضاقت عليها الأرض بما رحبت . ويصيح — مع شعراء مصر — كثيرون من شعراء البلاد العربية ، مهددين متوعدين منذرين على شاكلة قول الشاعر السعودى طاهر الزمخشرى :

لا نبالى إن تحدَّانا العِدَا ... قد شهدنا فى أيادينا الرَّدَى
وانطلقنا شُهبًا مِلْءَ المدَى ... مذ رَجَمْناهم تهاوَوْا بَدَدا

فما أنزلت بور سعيد من صواعق الموت بأعدائنا الآثمين أصبح سجلّ فخار ومجد للعرب فى كل دار ، إذ سلّ البورسعيديون سيوف الموت على رقابهم ، وأخذوا يرجمونهم بشهبه المحرقة ، حتى تنادوا : الفرار ، وقد لطّخهم بسواده الذل والعار . ويحيّ الشاعر السودانى محمد الفيتورى شهداء بورسعيد الأبرار ، منشداً :

ياجَبْهَتى انْحَنِى على تُرابها ... فكم شهيدٍ نام فى قِبابها
دَعَتْه فانقَضَّ على غُزَاتها ... يمزِّق الغُزاةَ عَنْ مِحْرَابها
ويَعْقِدُ الغارَ على جَبِينها ... ويوقف التاريخ عند بابها
حتى إذا راح شهيدًا جَدَّدَتْ ... شبابَه الخضيبَ فى شبابها

لقد أصبح الخلال يحفّ بتراب بورسعيد ، بل لقد أصبحت تحفّ به هالة قدسية أضاءتها دماء الضحايا الأحرار الذين لبوا نداء بورسعيد وفدوها بأغلى ما يملكون : بالأرواح ، محققين لها على الأعداء انتصاراً مجيداً ، بل واضعين على جبينها الوضىء إكليل الغار ، كاتبين فى التاريخ بذلك سطوراً خالدة نيّرة : سطور بطولة خارقة . وتنشب بيننا وبين إسرائيل معركة يونيو سنة ١٩٦٧ وتحدث النكسة غير المنتظرة . ويصمم كل عربى على محو آثارها ، ويحاول كل شاعر — بقدر ما يستطيع — أن يشعل النضال وغريزة الأخذ بالثأر فى أبناء الضاد ، على نحو ما يلقانا عند محمود حسن إسماعيل ، إذ يقول :

سيظل يَنْهَشُ فى عروقَ ثارُها ... حتى تكبِّر للصباح ديارُها
حتى يُداهمها الضُّحَى بيمينهِ ... وبها يُفَكُّ من القيود إسارُها
حتى يهلِّل فرحةً شهداؤها ... للنور يحمل فَجْرَه أحرارُها

حتى تزمجر بالفيالق حومةٌ عربيّةٌ لا يستريحُ أُوَارُها
حتى يبَيد الغاصبون بأَرضها وتبيد فوق رُفاتهم أوزارُها

ومحمود حسن إسماعيل إنما يتحدث بلسان كل مصرى ، بل كل عربى : أن ثأر فلسطين سيظل مشتعلا فى العروق والدماء ، حتى ينبثق صباح النصر الحاسم فى ديارها ، ويتلوه ضحاه بأضوائه الغامرة التى تنتشر بين ابتهاج السجناء المحررين وفرحة الشهداء بيوم الخلاص ، فى حين تزأر جحافل الثأر الغاضبة وتزحف مزمجرة ماحية آثام الغاصبين المعتدين محواً .

وتمضى سنوات ست عجاف ، وإذا فجر اليوم السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ تنتشر أضواؤه ، وتنتشر معه بشائر نصر عظيم على إسرائيل فى الجبهتين : المصرية والسورية ، وتلتصق أفئدة العرب فى كل مكان بالإذاعات تصغى إلى البلاغات الحربية وما تحمل من أنباء الانتصارات الباهرة ، ويَعْبر الجيش المصرى الباسل القناة ، ويغسل فيها أدْران هزيمة يونيو (حزيران) لسنة ١٩٦٧ وما يلبث أن يدمِّر خَطَّ بارليف وحصونه فى ساعات معدودات ، ويمحو معه أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يُقْهَرُ . ويشق الجنود الأبطال طرقهم فى سيناء ومرتفعات الجولان بالصدور والديناميت والحديد والنار ، وتباريهم نسورنا المحلقة فى السماء ، منزلة بالعدو ضربات قاصمة يتلوى منها ويئنّ ، والصواريخ هنا وهناك حواجز من نيران ترتطم بها الطائرات الإسرائيلية ، وتسقط كالفراش المبثوث ، وينصبّ جنودنا الأبطال على العدو الصهيونى كسيول من نار ، وعلى أشْلائه تُرفَعُ سوارى الأعلام العربية ، ويحيِّى صلاح عبد الصبور أول جندى رفع على سيناء علمَ الوطن المفدَّى ، منشداً :

تملَّيناك حين أهلّ فوق الشاشة البيضاءِ
وَجْهُك يلثم العلَما
وترفعه يداك لكى يحلِّق فى مدار الشمسِ
حرَّ الخَفْق مقتحما
وكان الوجهُ مبتسما

ولكن كان هذا الوجهُ يظهر ثم يَسْتخفى
ولم ألمح سوى بَسْمتك الزهراء والعينين
ولم تُعْلِن لنا الشاشةُ نعتًا لك أو إسما
ولكن كيف كان اسمُ هنالك يحتويك
وأنت فى لحظتك العظْمى
تحولتَ إلى معنى كمعنى الخَيْرِ
معنى الحب ، معنى المجد . معنى النورِ
معنى القدرة الأسمى

وهو نشيد من الشعر الحر الجديد ، وصلاح عبد الصبور فيه يعبر عن فرحة كل مصرى رأى هذا العلم كما رآه هو على شاشة الإذاعة المرئية أو قرأ خبر رَفْعه مرفرفاً فى سيناء ، وإنه ليتمنى أن يعانقه أو يقبّله كما قبله الجندى الذى رفعه وهو يبتسم وعيناه تلمعان بفرحة النصر الباهر . وإنه لجندى من هؤلاء الجند المجهولين الذين يفتدون الوطن وحبات رماله بأرواحهم الطاهرة ، غير مفكرين فى مجد سوى مجد مصر الحبيبة ، وهم لذلك لا يعنون بذكر أسمائهم وتسجيلها ، فأسماؤهم لا تهمهم ، إنما يهمهم الوطن وعَلَمه الذى ينبغى أن يرفرف دائمًا فى القمم .

ويقف الشاعر السورى نزار قبانى مبهوراً أمام انتصارات دمشق والقاهرة وعرسهما الغريب ، عرس الدم المسفوح . ويرى فيهما وجه معشوقته التى أصبحت منذ السادس من أكتوبر (تشرين) لسنة ١٩٧٣ أجمل منها فى أى يوم مضى ، فقد تراءت له حين استمع إلى بلاغ العبور : عبور القناة فى صورة فاتنة ملكت عليه لُبَّه . حتى خال هذا اليوم يوم زفافها فى موكب النصر الكبير ، بعد ست سنوات اصطلى فيها نار الهزيمة . ست سنوات أبعدته عن عالم العشق والعاشقين ، فإذا الجنود المغاوير يفسحون لعشقه من جديد ، فيركض إليهم خاشعًا فى جلال . ويعبر الجسور مع العابرين مبتهجًا بانتهاء عصور المحل والجدب . ويطير إلى معشوقته على فرس الريح والعزة القعساء حاملا لها ثوب الزفاف ، منتويًا أن لا يفارقها إلى أبد الآبدين ، منشداً :

أَلاحظتِ كم تُشْبهين دمشقَ الجميله
وكم تشبهين المآذنَ والجامع الأمويّ ورَقْصَ السَّماحْ
وخاتَم أمِّي وساحةَ مدرستي وجنونَ الطفولَه
أَلاحظتِ كم كنتِ أنثى
وكم كنتُ ممتلئًا بالرجوله
أَلاحظتِ كيف تألَّقَ وَجْهكِ تحت لهيبِ الحرائقْ
وكيف دبابيسُ شعركِ صارتْ بنادق

وعلى هذا النحو امتدت حدود معشوقة نزار ، فشملت دمشق ومآذنها وجامعها الأموي العتيد ورقص السماح الرشيق وخاتم أمه البهيج وساحة مدرسته ومرآة طفولته البريئة . وقد استحالت تحت وهج القنابل والحرائق دبابيس شعرها إلى بنادق مُسَدَّدَة إلى صدور الأعداء ، ويقول إنها أصبحت كل التراث بمفاخره وأمجاده ، ويؤكد هذا المعنى التاريخي قائلا :

أَلاحظتِ أَنك صرتِ دمشقَ
بكل بَيارقها الأمويَّه
ومصرَ بكلِّ مساجدها الفاطميَّه
وصرتِ حصونًا وأكياسَ رَمْلٍ
ورَتْلا طويلا من الشهداءِ
ألاحظتِ أنكِ صرتِ خلاصةَ كلِّ النِّساءِ
وصرتِ الكتابة والأَبْجَديَّه

فمعشوقته التاريخ كله : تاريخ أمجاد دمشق ومصر ، تاريخهما العظيم الغابر بكل مفاخره منذ اكتُشفت الكتابة وخطَّ أول مصري ودمشقي حروفها ، وتاريخهما الحاضر وما يضم من بطولات الشهداء التي تقشوها بدمائهم العَطِرة . والقصيدة أيضًا من الشعر الحر ونزار يهتف فيها : مات حزيران وماتت نكسته ، وأطلَّ فجر

جديد . ونلتقى فى كل بلد عربى بشاعر ، بل بشعراء يحيون هذا النصر المجيد . من ذلك تحية الشاعرة العراقية السيدة نازك الملائكة لمعارك سَبْت التحرير : السادس من أكتوبر الذى بدأت فيه قواتنا العربية اقتحامها معاقل العدو وتحريرها لسيناء والجولان ، مسجِّلة انتصاراً مدوِّياً زَلْزل العدو الصهيونىَ وهدَّ كيانه ، قائلة :

كان يومُ السَّبْتِ للأعداءِ عارًا وأراجيحَ جُنونْ
وسنُبْقيه لهم حائطَ مَبْكًى عنده يبكون يبكونْ
على أحجاره السُّود يطوفونْ
ويوم السبت دربٌ قاتل فيه لصهيونْ
سَعَال ومتاهاتْ
ذُراه وَعْرَةٌ وله زَوايا وانْحدارات
على أشجاره ثَمَّة (كنّاراتُهم) خَرْساء ملقاة
فلا فرح يناغمها
ولا تنساب فى أوتارها أيَّةُ آهاتْ

فسيظل يوم السبت للصهيونيين عاراً يَصِمُ جباههم ، بل سيظل مأتماً كبيراً يندبون فيه ويولولون وينوحون مناحتهم على حائط المبكى . إنه اليوم الذى سحق فيه الأشبال المصريون والعرب ضلوعهم . ودقوا أعناقهم . وتقتبس السيدة نازك من المزامير فى التوراة عبارة : « على أشجاره ثمَّة كنّاراتهم » مشيرة إلى مناحة قديمة لليهود بعد أن أنزل حمورابى بديارهم الدمار ومثَّل بهم قتلا وسبيًا . فقد علقوا آلاتهم الموسيقية المسماة بالكنّارات فى فروع الأشجار وارتموا تحتها يبكون ويولولون وينوحون ويئنون أنينا طويلا . وبمشاعر السودانيين المبتهجة بالنصر ينشد محمد الفيتورى من قصيدة محيِّيًا جنود المعركة البواسل :

ممتدةٌ زوارقُ الشمسِ
هم الآن على مشارف الأفقِ
يضيئون دُجَى سيناء والجُولان

ما أروع الآية . . يا من يَرْكض التاريخُ فى غُباركم
يا أيها الرجال . . أيها المقاتلون
اللهَ فى آفاق هذه العيونِ المُشْمِسَه
الله فى أجْنحةِ الحرائق المقدَّسَه
فى عِزَّة الصدور ، والسواعد القويه
اللهَ فى كرامة الأرض ، وفى عدالة الثأر
وفى الحريَّه

لقد تفجرت أضواء الصباح . . صباح النصر ، وامتدت زوارقه المضيئة ، إنها على مشارف الأفق فى سيناء والجولان تلمع وتضىء . والظلمات توشك أن تنحسر ، فما أروع المعجزة ! معجزة هذا النصر الباهر الذى جعل التاريخ يجرى فى ركابه ، ليسجله سطوراً من نور . ويحيى الفيتورى هؤلاء الجنود الذين أعادوا للأمة قواها ، متوجهاً إلى الله كى يُتم على جنده نصره ، وكى يشدَّ من عضدهم وسواعدهم المفتولة فلا يخذلوا أبداً . وإنها لمعركة الحرية والكبرياء القومية ، بل إنها معركة الثأر وغسل الأرض من العار وأوحاله . وبلغ من كثرة الأشعار التى نظمها شعراء الأوطان العربية معبرين عن عواطف شعوبهم إزاء معركة أكتوبر المجيدة أن خرج كثير من المجلات الأدبية فى أعداد خاصة جمعت باقة شعرية من كل وطن ، على نحو ما يلقانا فى عدد خاص لمجلة الآداب البيروتية ، وممن سُجِّلت أشعارهم فيه أحمد عبد المعطى حجازى من مصر والجواهرى وبحر العلوم من العراق ومحمود درويش ومعين بسيسو من فلسطين وسليمان العيسى وأحمد يوسف داود من سوريا وفؤاد الخشن وحسين حيدر من لبنان وحسن القرشى من السعودية ومحمد الهادى بوفرة من تونس ومحمد العلوى وحسن طريبق من المغرب ومحمد حسين سباق من ليبيا وعلى السبتى ومحمود سلطان من الكويت . وكثيرون وراء هؤلاء الشعراء فى الأوطان العربية عبروا عن شعوبهم وابتهاجها بانتصارات السادس من أكتوبر ، ولم يعبروا باللسان العامى لسان كل وطن ، وإنما عبروا بالفصحى التى تضم الأفواه إلى الأفواه والقلوب إلى القلوب فى كل البلاد العربية .

ولعل الشعر العربى الفصيح لم يزدهر فى عصر عربى كما ازدهر فى العصر

الحديث لثلاثة أسباب مهمة عرضنا لها فى صدر كلامنا عن الشعر فى هذا العصر ، أما السبب الأول فهو ما تحدثنا عنه مراراً ، من أنه كان الترجمان القوى لمشاعر الشعوب العربية وأهوائها فى النزعات الوطنية والقومية ، وقد اتخذت منه تلك الشعوب سلاحاً حاداً تُنازل به المستعمرين ، حتى قهرتهم وأخرجتهم على وجوههم من ديارنا خاسئين مدحورين . وأما السبب الثانى فهو ما تحدثنا عنه فى غير هذا الموضع من أنه أتيحت له وسائل فى العصر الحديث عملت على الاتساع فى إذاعته ونشره ، وهى وسائل لم تكن معروفة فى العصور الماضية ، ونقصد المطابع والصحافة والإذاعة المسموعة والمرئية ، وقد جعلت الشعر فى متناول كل يد وعين وأذن .

ولم نتكلم بإسهاب حتى الآن عن السبب الثالث فى اتساع انتشار الشعر العربى الحديث ، وهو التعليم ، فقد كان التعليم فى العصور الماضية يسير فى دروب ضيقة ، ولم تنظَّم له المدارس والجامعات والمعاهد كما نُظِّمت فى العصر الحديث ، فإن التعليم الابتدائى مثلا ينتشر فى جميع القرى ، وينتشر معه التعليم الأولى ، كما ينتشر التعليم الثانوى فى المدن الكبرى والصغرى ، وتنشأ معه فى كل الأقطار العربية مؤسسات تعليمية عليا وتنشأ الجامعات . وكل ذلك عمل لا فى مصر وحدها بل فى كل البلدان العربية على أن تتحول الأمة العربية فى هذا العصر إلى أمة قارئة ، وليس ذلك فحسب ، فإن الصبية والشباب فى المدارس يحفظون نصوصاً شعرية فصيحة كثيرة ، بحيث يصبح الشعر العربى الفصيح مادة أساسية بين مواد التعليم ، فلا يستطيع التلاميذ الانتقال من سنة إلى أخرى فى التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى دون أن يحفظوا منه الكثير ، فإذا قلنا إن عصرنا الحاضر أو الحديث أكبر عصر ذاع فيه الشعر الفصيح فى محيط الأوطان العربية لم نكن مغالين .

وليست المسألة مسألة انتشار الشعر الفصيح وذيوعه فحسب ، بل أهم من ذلك أنه أصبح الترجمان الحقيقى للتعبير عن وجدان الأمة العربية وكل ما يجيش بخواطر شعوبها ، بحيث تكاد تُرَدّ إليه حياته فى العصرين الجاهلى والإسلامى ، حين كان هو وحده أداة الشعب العربى فى تصوير خلجاته وأهوائه . وحقاً لا تزال العامية تحيى بجانبه هى وما يُصاغ فيها من شعر عامى ، ولكن حياته أقوى من حياتها ، بفضل انتشار التعليم واطراده بحيث تكتسب دوائر الشعر الفصيح يومياً قراءً جُدُداً .

ونفس الشعراء ، كما أشرنا مراراً ، يحاولون بكل ما استطاعوا تطويع أشعارهم لكى تكون تعبيراً دقيقاً عن كل ما يطوف بالشعوب العربية من مشاعر وخواطر وخوالج ، وأيضاً لكى تقترب من أفهام العامة وتدنو منها فلا تحس بضيق حين تقرؤها ، ولا تحس بنفور منها بل تُقبل عليها وترضى عنها وتجد فيها متاعها الشعرى . وكل ذلك معناه أن تطوراً واسعاً أصاب الشعر فى العصر الحديث ، وهو تطور فى لغته ، إذ أصبحت ميسرة مبسطة . وتطور فى مضامينه إذ أصبحت تدور فيما يشغل جماهير الشعب من أمور السياسة والعروبة والشئون الإصلاحية . لم يعد شيء من الشعر يدور فى المديح ، كما كان يحدث أحياناً أو فى كثير من الأحيان ، حين كان يتخذه كثير من الشعراء وسيلة تكفل لهم ما يريدون من المعيشة والمكانة ، فهم يقدمونه للحكام وذوى النباهة . حتى يحموهم ويعطوهم ما يعود عليهم بالرخاء . لم يعد شيء من الشعر يجرى فى هذا المجال ؛ فقد أكبر الشعراء المعاصرون أنفسهم من أن يحميهم هذا الحاكم أو ذاك واتجهوا إلى الشعب يسترضونه ويعيشون له ، وبه ، واتجه إليهم الشعب . فاستمع لهم ورضى عنهم . إذ وجدهم يعبرون عن ذات نفسه وعن أهوائه وخوالجه وكل ما يلم به من أحداث وخطوب .

ونزعم أن الطوابع الشعبية أخذت تتسع فى الشعر مع كل شوط جديد كان يقطعه فى هذا العصر ، بسبب انتشار التعليم — كما قلنا آنفاً — وإحساس العرب بأنه ضرورة من ضرورات الحياة كضرورة الماء والهواء . بحيث نظن ظناً أنه عما قريب ستصبح جميع الشعوب العربية شعوباً قارئة ، وسواء أقربت المسافة بيننا وبين هذا الغد المنتظر أو طالت فإننا صائرون إليه حتماً . وحينئذ تتم للشعر الفصيح طوابعه الشعبية وتتكامل ، ولا يعود يشعر بمزاحم له من الشعر العامى . على أن من يدرس الشعر الأخير نفسه دراسة فاحصة منذ وُجدت أشكاله فى العربية يجده دائماً يحاول الاقتراب من الفصحى وشعرها الفصيح باستخدامه بعض صيغ من أساليبها ، نجد ذلك عند ابن قزمان مخترع الأزجال الأندلسية أو أول من أكثر منها ، وكذلك عند من خلفوه من الزجالين إلى عصرنا الحاضر . ومعروف أن مضامين الأزجال هى نفسها مضامين الشعر العربى ، إذ تحمل نفس أغراضه وموضوعاته كما تحمل نفس معانيه ورواسب تصاويره وفنون بديعه . والفرق الحقيقى إنما هو فى اللغة وحدها ، ولكن بهذا الوصف الذى ذكرناه ،

وهى أنها ترتفع قليلا أو كثيراً عن العامية، محاولة الاقتراب من الفصحى، وبذلك كانت لغة الأزجال تمثل لغة ثالثة ، لا كما يظن كثيرون أنها لغة عامية خالصة ، وهو مبحث طريف لم يُدْرس ولم يكتب حتى اليوم .

ومن الملاحَظ بصفة عامة أن الشعر الفصيح يدور فى ألسنة الشعوب العربية بأكثر مما يدور الشعر العامى لا فى التعبير عن العواطف الوطنية والقومية والدينية فحسب ، بل أيضًا فى التعبير عن وجداناتها وعاطفة الحب والهوى . وليس أدل على ذلك من المجلات والصحف فإنها تزخر بأشعار فصيحة تصور الحب : حياته وموته ووقائعه ، وكثير منها امتداد لتراثنا العذرىّ الذى يبلغ من الصفاء والنقاء والارتفاع عن شوائب الحسّ وأدرانه مبلغاً عظيماً ، بينما المحب فيه يتعذب عذاباً مرًّا .

ومما لا ريب فيه أن الشعر الفصيح الحديث يحوز قَصَب السبق عند الشعوب العربية حتى فى مجالات الحب والهيام بالقياس إلى الشعر العامى ، بل إن هذا الشعر الأخير يحاول اللحاق به فى تلك المجالات وجلب لمسات مختلفة منه ، حتى يبلغ ما يريد أصحابه من التأثير فى نفوس الناس . وحقًّا قد يُستَخْدم الزجل أحياناً فى تصوير الحب ، حين يراد لبعض الأغانى فيه أن تكون خفيفة مرحة . أما حين يكون الحب جادًّا عميقاً مليئاً بالآلام وبأوصاب الوجد فإن الشاعر حينئذ يفزع إلى الشعر الفصيح الذى ينهض من قديم بتصوير الحب العنيف الذى يستأثر بكل ما فى النفس من أهواء وعواطف ومشاعر . وارجعْ إلى أى مغن مشهور أو مغنية ذات شهرة فى عصرنا فستجدهما يغنيان فى شعر حب فصيح كثير ، ونضرب لذلك مثلا المرحومة السيدة أم كلثوم ، فإنها تتغنى أغانى فصيحة كثيرة تصور الوجد والهيام ، تتناقلها الإذاعات العربية صباح مساء ، منها قصيدة الأطلال لإبراهيم ناجى ، وهى قصيدة رائعة ، ووراءها أغان عصرية فصيحة كثيرة ، تغنت فيها السيدة أم كلثوم لأحمد رامى ، ونقل لها أحيانًا بعض رباعيات الخيام وصدحت بها ، كما صدحت لشعراء آخرين معاصرين بغزليات بديعة . ومدت غناءها الخلاّب إلى الشعر العربى القديم ، فتغنت بأشعار عذبة لغير شاعر من الشعراء القدماء ، وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى أغنيتها لأبى فراس الحمدانى :

أراك عَصِىَّ الدَّمع شِيمَتُك الصَّبْرُ أما للهوى نَهْىٌ عليك ولا أَمْرُ

والأغنية تدور على كل لسان فى عصرنا ، بما أضافت إليها من صوتها الساحر الذى يمس شغاف القلوب . والغناء المعاصر بذلك لا يكتفى بما يذيع من الشعر الفصيح الحديث فى أوسع نطاق ، بل يضيف إليه أغانى رائعة من الشعر القديم وبذلك يصبح عاملا مهمًّا من عوامل نشر الشعر وإذاعته من مختلف العصور

ومثل ثانٍ للمغنين هو الأستاذ محمد عبد الوهاب الذى تصدح بصوته وألحانه الإذاعات العربية ، مبلغة أغانيه إلى كل بلد وكل كوخ ، وكثرة أغانيه يختارها من الشعر الفصيح المعاصر ، حتى يبلغ من القلوب كل مبلغ ، على نحو ما رأيناه آنفا من تغنيه بأشعار شوقى لا فى السياسة فحسب . بل أيضًا فى الحب إذ لم يكد يترك له قصيدة أو مقطوعة فيه طريفة إلا تغنى بها ، سواء فى شعره الغنائى الخالص أو فى شعره التمثيلى ، وخاصة مسرحيته : « مجنون ليلى » كما مر بنا ومسرحيته « مصرع كليوباترا » وأيضًا لم يكد يترك شاعراً مصريًّا نابهًا فى عصرنا إلا تغنى له ، فقد تغنى لمحمود حسن إسماعيل فى قصيدته عن النيل المسماة باسم « النهر الخالد » وكذلك فى قصيدته « دعاء الشرق » وتغنى لأحمد فتحى فى قصيدته « الكرنك » التى تمثل فيها هذا المعبد الفرعونى وأمجاد مصر الخالدة تمثلا بديعاً ، وتغنى لعزيز أباظة « همسة حائرة » التى استلهم فيها حب العذريين الطاهر النقى . وتغنى لعلى محمود طه فى قصيدتين من قصائده ، هما « الجندول » و « ليالى كليوباترة » والأولى فى وصف كرنفال فينسيا ، وأما قصيدته الثانية فتصور « كليوباترة » فى زورق يتهادى بين ضفاف النيل ، وقد ألهب حواسَّها حب محموم لمحبوبها المصرى الأسمر ، وإنها لتبحث عنه منادية له متلهفة ظامئة متعطشة بصوت الأستاذ محمد عبد الوهاب وإرناناته وألحانه الصوتية البديعة .

وتغنى الأستاذ محمد عبد الوهاب — مثله مثل المرحومة السيدة أم كلثوم — لبعض الشعراء القدماء من أمثال مهيار ، وتغنيه فى قصيدته :

أعجبتْ بى بين نادى قومها أمُّ سَعْدٍ فمضتْ تسأل بى

يجرى على كل لسان . وهو والمرحومة السيدة أم كلثوم مثلان من عشرات المغنين والمغنيات فى أوطاننا العربية ممن تصدح الإذاعات العربية بأغانيهم صباح مساء ،

فتشيع على الألسنة فى جميع أوطان العرب من الخليج إلى المحيط .

وإذا لاحظنا أن هذه الإذاعات تنتشر انتشاراً كبيراً وهو انتشار نشأت عنه كثرة هائلة من السامعين للأغانى ، كما لاحظنا الانتشار الواسع فى عصرنا للمطابع والصحف والتعليم وما نشأ عن ذلك من كثرة القراء للشعر كثرة ضخمة ، عرفنا أن الجماهير التى يخاطبها الشعراء فى هذا العصر لا تقاس إليها جماهير الشعر فى العصور السالفة ، فإنهم لم يبلغوا يوماً هذا المبلغ من الأعداد الوافرة ، ولا كان الشعراء يعنون بهم عناية شعراء العصر الحديث بالجماهير المعاصرة إذ مضوا يتأثرون بها ويتغلغلون فى حياتها ، ويقدمون لها كل ما ينتجون ، مما جعل أشعارهم تُطْبَعُ بطوابع جماهيرية أو شعبية وهى طوابع تتضح فى مضامينها وتصويرها للعواطف والمشاعر الوجدانية والوطنية والقومية والدينية ، كما تتضح فى لغتها وتيسيرها وتبسيطها صوراً مختلفة من التبسيط والتيسير .

خـاتمـة

رأينا فى الصحف السابقة كيف كان الشعر فى العصر الجاهلى ينظم بلغة أدبية عامة هى لغة قريش وأنه كان شائعاً منتشراً على كل لسان فى الجزيرة العربية ، مما جعله يُطبع بطوابع شعبية كثيرة إذ نرى الجماعات تتناشده فى التراتيل الدينية ، وكان النساء ينشدنه فى حفلات الأعياد وفى الأعراس وفى الحروب والمآتم . وكان الجاهليون يحدون به الإبل فى سُراهم ليلا ، وفى كل عمل يقتضى حركة متصلة فى القتال وفى السقى من الآبار . ولم يكن هناك شخص فى الجاهلية إلا وينشد منه أو ينظم أبياتا ، يشترك فى ذلك سادتهم وصعاليكهم ورجالهم ونساؤهم وشيوخهم وشبابهم . وكان سريع الانتشار بينهم ، يدل على ذلك أكبر الدلالة أن نجد الشعراء فى شرقى الجزيرة وغربيها وأواسطها يتداولون معانى وصياغات بعينها ، وكأنهم يعيشون فى حى واحد أو فى دار واحدة ، حتى التشبيهات والصور تتحد فيما بينهم وتتحد المعانى .

وتعمُّ أضواء الإسلام الجزيرة العربية وتنشب معارك عنيفة بينه وبين عبدة الأوثان والأصنام ، والشعر يُنْظَمُ على كل لسان وقوداً جزلا للحروب الملتهبة ، ويُتمّ الله نعمته على القوم ، فيعتنقون الإسلام ويخرجون إلى الفتوح داعين له ومبشرين بين أطباق الأرض من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسى ، وكلما شهروا سيوفهم فى معركة استلُّوا معها مالا يحصى من الأناشيد الحربية . وانقسموا بعد معركة صفين أحزاباً فكان هناك الخوارج والشيعة وحزب الزبيريين وحزب بنى أمية ، وجميعها كانت تطالب بالعدل الذى لا تصلح حياة الأمة بدونه ، وكان لكل حزب شعراؤه الذين يناضلون عنه نضالا عنيفاً . ودفعت معيشة العرب الجديدة بمدن العراق إلى اتخاذ فن للتسلية وقطع أوقات الفراغ ، ولبّاهم الشعراء أو لبّوا حاجتهم فاشتقوا لهم من الهجاء القديم فن النقائض ، وكانوا يتجمعون حول شعرائه فى مِرْبد البصرة وكُناسة الكوفة للتصفيق والتهريج وهم تارة يستحسنون وتارة يستهجنون . أما مدن الحجاز فاتخذت الغزل وأغانيه مَسْلاة لها ، واستطاع

المغنون هناك أن يضعوا نظرية الغناء العربى المشهورة ، وأخذ شعراء المدن من أمثال ابن أبى ربيعة الشاعر المكى يمدون المغنين بأغان لا حصر لها ، وأمدهم أيضًا شعراء البوادى فى نجد بغزلهم العذرى العفيف وأقاصيصه على نحو ما هو معروف عن قيس مجنون ليلى وما نَظم من غزل ونسَج حوله البدو من أقاصيص . والشعر الإسلامى بذلك كله كان صورة لمشاعر الشعب وحياته الاجتماعية والسياسية والدينية .

واطَّردت صلة الشعر بحياة الشعب فى العصر العباسى الأول ، إذ نجده على ألسنة الموالى كما نجده على ألسنة العرب ، وكان أكثر الشعراء من أبناء الشعب أو بعبارة أدق من أبناء الطبقة العاملة الكادحة على نحو ما هو معروف عن بشار وأبى نواس وأبى العتاهية ومسلم بن الوليد وأبى تمام . ولعل هذا ما جعل الشعر حينئذ شديد الصلة بحياة الشعب ، حتى فى المديح ، فإن الشاعر حين كان يمدح خليفة كان يرتفع به إلى الصورة المثالية للخليفة فى أذهان الشعب وكان لا يزال يصور بطولات جيوشه فى الشمال والشرق : فى حروب البيزنطيين والترك . وكان الهجاء تصويراً لمساوئ المجتمع وأخلاق أفراده الذميمة . وكان الرثاء تصويراً لعواطف الشعب حين يستشهد بطل من أبطاله ، وكان الشيعة ينوحون بكثير من الأشعار على قتلاهم . وفُتن الناس حينئذ بالغزل وأغانيه وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى الذى يقع فى أكثر من عشرين مجلداً يموج بالأغانى والمغنيات والمغنين . وتتضح فى تلك الأغانى سهولة الألفاظ وعذوبتها وليونتها ، حتى لتقترب قرباً شديداً من اللغة اليومية حينئذ . وصوَّر الشعراء حياة المجون والمجّان ، كما صوروا حياة الزهد والزهاد ، وبالمثل صوروا حياة الطبقات الكادحة البائسة وما كانت تعيش فيه من ثياب بالية ومن جوع ومسغبة . وشاع صنع مقطوعات قصيرة يستطيع الشعب أن يتداولها فى خفة مما أعد لظهور الرباعيات والأغانى الشعبية المعروفة باسم المواليا .

ويحتدم المديح فى العصر العباسى الثانى . ويكثر وصف المعارك الحربية وتصوير البطولة العربية برًّا وبحراً ، ولابن المعتز قصيدة طويلة فى نحو أربعمائة بيت يجسِّد فيها فساد الحياة السياسية وما كان يُصَبُّ على رءوس الشعب من مظالم جائرة . وينشط الهجاء فى تصوير مثالب الحكم والحكام ومساوىء المجتمع

وأفراده ، مع ظهور ضرب من الهجاء الكاريكاتورى المضحك . ويتوزع الرثاء بين اجتماعى وسياسى ،وتظل مراثى الشيعة ومآتمهم على الحسين قائمة . ويكثر الغزل الصريح والعفيف وتكثر معه قصص المحبين من مثل قصة عشق سعيد بن حُمَيْد وفضل الجارية الشاعرة وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ومحبوبته شاجى . ونرى الشعراء يصفون حياة الخمر والمجون ، كما يصفون حياة الشعب وأطعمته وأصنافَ الناس على اختلاف مشاربهم وحرفهم وخاصة الشوَّائين والخبَّازين والحمَّالين . وازدهر شعر الزهد وما يُطْوَى فيه من حياة الشظف التى كانت تعيشها الطبقات الشعبية ، وأخذ يزدهر معه شعر التصوف الذى يعبر عن محبة الله محبة لا تشبهها محبة . وكانت للصوفية ولكبار الزهاد والوعاظ حلقات فى المساجد ، يتحلق فيها الناس من حولهم جميعاً ليستمعوا إلى مواعظهم وما ينشدونه من أشعار . وصوَّر كثير من الشعراء حياة الشعب البائسة وكيف أن كثيرين منه لم يكونوا يجدون كساء ولا طعاما فضلا عن مأوى مريح يأوون إليه .

وننتقل إلى عصر الدول والإمارات . ويزدهر الشعر به فى جميع الأقاليم العربية ، ويلقانا فى العراق المتنبى وثورته العنيفة على من يحكمون العرب من الأعاجم مشهورة ، وقد حمل فى سبيلها سيفه وقلمه مناضلا ، وظل بعد إخفاق ثورته ينفخ فى روح العرب بكل قوته كى يزيحوا ظلم الحكام الفاسدين لعصره عن كواهلهم ، وصوَّر بطولة سيف الدولة الفارس العربى وجنوده فى قتال البيزنطيين تصويراً يَزْرع البسالة والبطولة فى نفس كل عربى ضد أعداء شعبه . وتظل مآتم الشيعة فى العراق منصوبة . وندخل فى حقبة الحروب الصليبية ويكثر الشعر الذى يستنهض به الشعراء أبناء الأمة كى يذيقوا الصليبيين وبال غزوهم . ويظل للغزل والزهد وشعر التصوف ما مر بنا فى العصر الماضى من ازدهار . وبالمثل يظل لشعر البؤس وحياة الضيق والضنك نفس الازدهار . وتنهض مصر والشام بأعباء القتال مع الصليبيين ويُنْزل بهم نور الدين محمود أمير حلب والشام هزائم ساحقة ، ويمحقهم صلاح الدين فى موقعة حِطِّين محقاً . ولا يَبْقَى لهم فى الشام إلا عكا وحصون صغيرة ، ويكثر الشعر فى أثناء ذلك كثرة مفرطة ، فليست هناك موقعة صغيرة ولا كبيرة إلا وأنشد فيها الشعراء قصائد طنانة ، وكان يستشعر نفر منهم فكرة القومية العربية ويتغنى بها مؤملا وحدة العرب فى وجه أعدائهم

الصليبيين . ويدور الزمن . وتفد سيول التتار ، وتردها مصرفى عين جالوت إلى غير رجعة والشعراء يهللون . وتخرج بقية الصليبيين إلى البحر وما وراءه مدحورين . ودائمًا الشعراء بالمرصاد لحكامهم الفاسدين من الفاطميين وغير الفاطميين . وتظل أغراض الشعر من رثاء وغزل . ونحس روحًا شعبية قوية فى لغة الغزل المصرى . وينمو الشعر الصوفى نموًّا واسعاً على نحو ما هو معروف عند ابن الفارض سلطان العاشقين ، وتكثر المدائح النبوية . ويمثل الشعر فى مصر خفة الروح التى يشتهر بها المصريون وما يُطْوَى فيها من الفكاهة والدعابة . وتلقانا هذه الطوابع الشعبية العامة فى الشعر الأندلسى سواء فى حروب الأندلسيين مع نصارى الشمال أو فى انتقاض العامة على الحكام الفاسدين أو فى رثاء المدن التى كانت تسقط فى أيدى النصارى واستنفار الشعب لنزالهم . ونشط عندهم الغزل وخاصة الغزل العذرى النقى ، كما نشط شعر الزهد والتصوف . واسم ابن عربى الصوفى الأندلسى يتردد فى الأفواه . ودلائل كثيرة تدل على أن الشعر فى الأندلس كان ينشد على كل لسان ، ينشده الرجال والنساء ، بل ينظمونه ، وينظمه الزراع وراء محاريثهم ، كما ينظمه كثيرون من الشعراء الجوالين .

ونمضى إلى العصر الحديث ، فتؤثر المطبعة وانتشار التعليم فى ذيوع الشعر إذ يكثر عدد القراء . ويسهل طبع الدواوين ونشرها فى الناس . وتؤثر الصحف بدورها فى هذا الذيوع تأثيراً واسعًا . وليس ذلك فقط فإنها وجهت الشعراء إلى الاتصال بأفراد الشعب وجماهيره والصدور عن أحاسيسها ومشاعرها وأهوائها فى السياسة وغير السياسة ، مما أتاح للطوابع الشعبية أن تظهر بقوة فى الشعر الحديث ، سواء منها ما اتصل بالحياة الدينية الروحية أو بمطالب الشعب فى الحياة السياسية أو بأهوائه الوجدانية فى الحب وغير الحب . وشوقى يصور ذلك بقوة فهو يقف مع الشعب المصرى غاضباً حين يغضب على الإنجليز ، وهو يصوِّر فساد الحكم حين نشوء الأحزاب وتطاحنها على المآرب الصغرى ، ولا يزال يستثير حمية الشباب كى يضربوا المحتل الضربة القاصمة ، وهو فى أثناء ذلك يجسد لهم أمجاد آبائهم الأولين من الفراعين ، ويقطِّر لهم عواطفهم القومية إزاء الشعوب العربية ، ولم يثر شعب عربى على محتلّيه الآثمين

إلا وقف معه يُشعل الحمية فى نفوس أبنائه ، صارخاً ، ومهدداً متوعداً ، منذراً المستعمرين الباغين بسوء المصير . وعلى نحو ما كان يصدر عن شعبه والشعوب العربية فى العواطف الوطنية والقومية كان يصدر فى العواطف الدينية وفى مشاعر الحب الإنسانى . وحتى مسرحياته وزعها على العواطف الوطنية مثل مصرع كليوباترا وعلى بلك الكبير وقمبيز ، والعواطف القومية مثل مجنون ليلى وعنترة . وواضح أن شعر شوقى جميعه المسرحى والغنائى يطبع بطوابع شعبية قوية . وعلى شاكلته حافظ إبراهيم وهو يضيف إلى هذا النغم الذى رأيناه عند شوقى نغمة قوية يصوِّر فيها بؤس الشعب المصرى فى زمن الاحتلال وما كان يرزح تحته من أثقال وهموم اجتماعية . وعلى مثال أشعاره وأشعار شوقى أشعار الشعراء فى العراق على نحو ما نقرأ عند الرصافى والجواهرى ، وبالمثل الشعراء السوريون من أضراب خليل مردم ومحمد البزم وشعراء فلسطين من أمثال إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وهرون هاشم رشيد وأبى سلمى وشعراء ليبيا من أضراب أحمد رفيق المهدوى وشعراء تونس من أمثال الشابى وشعراء المغرب من نظراء أبى بكر بنانى وعلال الفاسى ، وشعراء الجزائر وفى مقدمتهم محمد العيد آل خليفة . وتتجمع قلوب شعراء البلاد العربية حول مصر منذ ثورتها المجيدة ، ويرمون الإنجليز والفرنسيين والاسرائيليين فى عدوانهم الآثم على مصر سنة ١٩٥٦ بسهام شعرية ملتهبة لم تزل توجَّه إلى صدورهم من كل بلد عربى ، حتى إذا عَبر الجيش المصرى القناة فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ وسحق الإسرائيليين مدمراً خط بارليف تعالى هتاف الشعراء وتهليلهم لهذا النصر المبين . ومن الحق أن أساليب الشعر تطورت فى أثناء ذلك كله تطوراً واسعًا ، إذ أصبح لسان الشعوب العربية واقترب به الشعراء من أفهام الجماهير متخذين كل ما يمكن من أسباب لتطويره وتيسير لغته وتبسيطها ، بحيث أصبح غذاء حقيقيًّا للشعوب العربية لا فى مجالات العواطف الدينية والسياسة والقومية والاجتماعية فحسب ، بل أيضًا فى مجالات عواطف الحب الإنسانى ، وهو غذاء تتلقَّاه عن طريق طبع الدواوين وعن الصحف وعن الغناء به والإذاعات ، حتى ليمكن أن نقول إنه أصبح غذاء يوميًّا تجد فيه الشعوب العربية حياتها وعواطفها وأهواءها ، كما تجد فيه لذتها ومتاعها وكل ما طمحت ، وتطمح ، إليه من حرية واستقلال ومن حق وخير وجمال .